كتاب الهلال

الإسلام
دين الفطرة والحرية

الشيخ عبدالعزيز جاويش

سلسلة
ثقافية
شهرية



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: كمال النجمي

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون: ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٩٠ ـ شعبان ١٤٠٣ ـ يونية ١٩٨٣

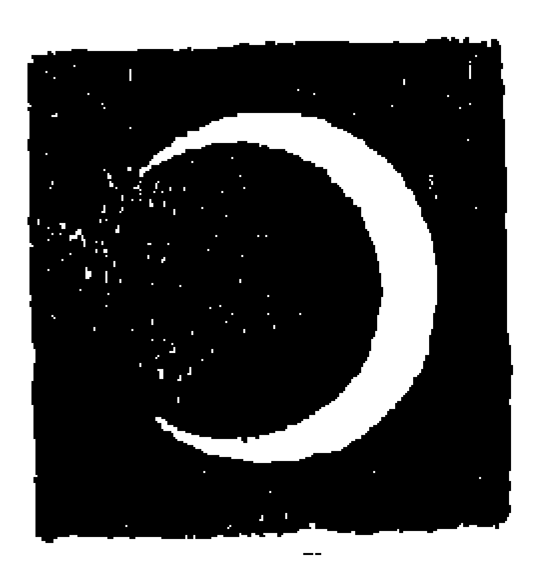
No. 390 — June 1983

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ـ ١٢ عدداً في جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان خمسة جنيهات مصرية او مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنانة سميحة حسنين



الإسلام

دين الفطرة والحرية

●

تأليف

الشيخ عبد العزيز جاويش

●

دار الهلال

الإهداء

بقلم نجل المؤلف

المرحوم ناصر جاويش

الى الجيل الذى عاصر أبى ، والبقية الصالحة التى نستمد منها العون والهدى فى طريق الحياة .

الى الجيل الذى نشأ بعد أبى ، ولم يتح له أن يعرف شيئا ، أو عرف القليل عن جهاده فى سبيل الوطن والعروبة .

أقدم بعض آثار والدى فى ميدان الاصلاح الدينى والعلمى ، الذى حمل لواءه ، فى عهد كان عبء الدعوة فيه الى الاصلاح فادحا لا ينهض به الا المجاهدون ، من أولى العزم والقوة ، الذين يستسهلون كل صعب فى سبيل أداء رسالتهم ، لا يثنيهم عنها ما يعترض طريقهم من أهوال ، وبخاصة فى تلك الحقبة التى قام فيها بالدعوة الى الاصلاح .

وهى رسائل تحمل أسماء مختلفة ولكنها تهدف جميعا الى غرض واحد ، هو الكشف عما فى الاسلام من سمو ورفعة ، وما فى أحكامه من علم وحكمة ، وما فى روحه من بر بالانسانية وهداية لأبنائها .

ولعل من توفيق الله ، أن تتهيأ الفرصة لنشر هـذه الرسائل فى الفترة التى تطورت فيها الروح المصرية ، واتجه فيها تفكير المثقفين الى المباحث الدينية على أسلوب علمى ، كان يلتزمه ــ رحمه الله ــ فى كل مباحثه ودراساته .

وليس من حقى فى هـذا المقـام أن أطرى هذه الآثار العلمية ، لأنها آثار ابى ، وهأنذا أقدمها للقراء أثرا عليه طابع منشئه وحسب ، وفيه قوة روحه وايمانه وكفى .

ناصر جاويش

المؤلف في سطور

* ولد المؤلف فى ٣١ أكتوبر سنة ١٨٧٦ من اسرة مغربية بمدينة الاسكندرية .

* بدأ حياته التعليمية بالأزهر سنة ١٨٩٢ ثم تخرج فى مدرسة دار العلوم سنة ١٨٩٧ .

* عين مدرسا فى مدرسة الزراعة ثم ارسلته وزارة المعارف فى بعثة الى جامعة (برورود) بانجلترا .

* عاد من البعثة سنة ١٩٠١ وعين مفتشا بوزارة المعارف .

* عين أستاذا للغة العربية بجامعة اكسفورد واثناء وجوده بانجلترا دعيت الحكومة المصرية لحضور مؤتمر اللغة العربية فى بلاد المغرب فمثلها فى هذا المؤتمر .

* عاد عام ١٩٠٦ وعين مفتشا أول بوزارة المعارف واستمر الى أن استقال فى ابريل سنة ١٩٠٨ .

* رأس تحرير جريدة اللواء فى ٢ مايو سنة ١٩٠٨ خلفا للزعيم الوطنى مصطفى كامل .

* قدم للمحاكمة أمام محكمة عابدين سنة ١٩٠٨ فى قضية (الكاملين) لنشره مقالا تحت عنوان (دنشواى اخرى فى السودان) وقد حكم عليه ابتدائيا بتغريمه

عشرين جنيها نظير اهانة نظـارة الحربية المصرية وبرىء استئنافيا .

* قدم للمحاكمة فى سنة ١٩٠٩ بسبب نشره مقالا فى اللواء تحت عنوان (ذكرى دنشواى) اعتبرته النيابة اهانة فى حق بطرس غالى و فتحى زغلول ، وصدر الحكم استئنافيا بحبسه حبسا بسيطا ثلاثة أشهر .

* فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٠٩ قدم له الشعب وساما فى حفل خاص أقيم فى فندق شبرد تقديرا لوطنيته .

* فى فبراير سنة ١٩١٠ أنشأ مجلة الهـداية لافهـام المسلمين أسرار القرآن وأنشأ المدارس الاعدادية الثـانوية والليلية لتعليم اللغة الفرنسية وآدابها للأزهريين .

* فى سنة ١٩١٠ قدم للمحاكمة بسبب وضعه مقدمة لكتاب (وطنيتى) تأليف الشيخ على الفاياتى وحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر حبسا بسيطا مع التنفيذ .

* وفى سنة ١٩١٢ أبعد الشيخ جاويش الى تركيا حيث أعاد اصدار مجلة (الهداية) و (الهـــلال العثمانى) و (الحق يعلو) .

* وفى سنة ١٩١٢ تزعم الشيخ جاويش وبعض زملائه أنصار الحزب الوطنى جمع التبرعات وارســال الذخائر وتهريب القواد الاتراك الى طرابلس لمقاومة الغزو الايطالى .

* سنة ١٩١٣ طلبت الحكومة المصرية تسليم الشيخ جاويش لمحاكمته عن تهمة ارسال منشورات ضبطت مع أحد الطلبة المصريين القادمين من تركيا وتم تسليمه فعلا للحكومة المصرية وأودع سجن الحدرة ثم أفرج عنه .

* وفى سنة ١٩١٤ أنشأ الجـــامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ووضع أساسها واعاد اصلاح كلية صلاح الدين بالقدس الشريف وعهد اليه بادارتها .

* وفى سنة ١٩١٤ سافر الشيخ جاويش الى انجلترا حيث اتفق مع أحد أغنياء الهنود على انشاء أسطول اسلامى وأثناء ذلك حصل اعتداء على الخديو عباس حلمى فشعر بأن السلطات البريطانية تنوى القبض عليه لاتهامه فاختفى وتمكن من الهرب الى باريس .

* وفى سنة ١٩١٥ أعدت حملة من الجيش التركى لتخليص مصر من الاحتلال الانجليزى واشترك فيها الشيخ جاويش وبعض رجال الحـــزب الوطنى الذين تمكنوا من السفر خلسة بعد اعلان الحرب .

* وفيما بين سنتى ١٩١٥ و ١٩١٨ كان يتنقل ما بين المانيا وتركيا والشـــام وقد أنشأ مجلات احداها تصدر باللغة الالمانية باسم **Die Islamische Welt** وثانية فى اسطنبول باللغـــة العربية باسم (العـــالم الاسلامى) وفى سويسرا مجلة باسم **L'Egypte** بالاشتراك مع رجال الحزب الوطنى للدفاع عن اســتقلال مصر ، وكذلك استخلص الاعتراف باستقلال مصر من مجلس المبعوثان بالآستانة والريخستاغ بألمانيا فى عام ١٩١٧ ، كما اشترك فى مؤتمر الدفـــاع عن الأمم المهضومة الحقوق فى استكهولم .

* وفى سنة ١٩١٨ غادر الشيخ جاويش ومعه رجال الحزب الوطنى تركيا خفية بعد انتهاء الحرب الى ألمانيا عن طريق روسيا ثم الى سويسرا حيث قاموا بالاتصـــال بالوفد المصرى بباريس وقـــدموا له مذكرة بما قاموا به فى أوربا .

* وفى سنة ١٩٢٢ استدعاه الغازى مصطفى كمال باشا وعينه رئيسا للجنة الشئون التأليفية الاسلامية بأنقرة .

* وفى سنة ١٩٢٣ حصل خلاف بينه وبين الغازى مصطفى كمال فى شأن الغاء الخلافة ، وكان الدستور قد أعلن بمصر فحاول العودة للوطن وتمكن من العودة الى مصر خفية فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٣ . ونشرت جميع الصحف مقالا تحت عنوان (تجديد العهد) بتوقيع الشيخ جاويش وبعد عشرة أيام صرحت الحكومة للشيخ جاويش بالاقامة بمصر وكان يتولى الوزارة وقتذاك يحيى ابراهيم .

* وفى سنة ١٩٢٥ عين مراقبا عاما للتعليم الأولى بوزارة المعارف العمومية وقام باصلاحاته المعروفة .

وفى ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩ توفى رحمه الله بعد حياة حافلة بالجهاد والوطنية وسنه لا تتجـــــــاوز الثالثة والخمسين .


دين الفطرة

تمهيد

زارني ذات يوم ، وأنا في اكسفورد من بلاد الانجليز ، لفيف من نجباء طلبة العلم فى كليتها الجامعة ، فما كاد يستوى بهم المجلس حتى أخذنا نتحادث فى أمر الشرق والشرقيين ، وما لهم من الأخلاق والعادات والاحوال ، التى تباين فى كثير من الوجوه ، ما عليه أهل أوربا ، حتى افضى بنا المقام الى الكلام فى الاسلام ، فوجدت من خلال حديث القوم انهم لا يكادون يفقهون للاسلام معنى ، سوى انه دين الاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات ، وأن المسلمين يعبدون محمدا كما يعبد النصارى المسيح ابن مريم ، وما زادونى فيهم بصيرة ، فلطالما قابلت من أمثالهم ما أوقفنى على مبلغ علم معظم القوم بهذا الدين الحنيف .

فأخذت اذ ذاك ابين لأولئك الافاضل ، أصول الدين الاسلامى وقواعده وحكم بعض تكاليفه ، فكنت أرى القوم يتدبرون ما أقص عليهم ، من غير أن يستهوى نفوسهم تعصب ، ولا يعمى قلوبهم عناد أو جحود ، بل نبذوا وراء ظهورهم جميع ما كانوا يلقنونه منذ المهد من النقائص ، التي مثلت لهم الاسلام فى أبشع صورة وأقبحها ، ولم يكد

ينتهي بنا الحديث ، حتى انطلق أحدهم قائلا : « يخيل الى أيها الشيخ أن هذا الدين لا ينافى الفطرة فى شيء » . فأجبته إذ ذاك بما تذكرته من قوله عليه السلام : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا تجدعونها » . وترجمت لهم ذلك الحديث الشريف .

والذى يفهم من الحديث أن التهويد أو التنصير صفة تطرأ على الانسان بكسب أبويه كالجدع الذى يصيب الشاة بعد أن تولد على الفطرة سليمة لا عيب فيها .

ويدل على ذلك ما نص عليه الشرع الاسلامى من عدم تكليف القاصرين والا يؤاخذوا بما فعل آباؤهم من التهويد والتنصير ، حتى يبلغوا راشـــدين راضين بدين آبائهم فيؤاخذوا اذ ذاك وقد ألقيت على كواهلهم أعباء التكاليف بما كسبت أيديهم .

فترى الاسلام قد اعتبر القاصرين ، حتى أبناء النصارى او اليهود أو المجوس ، مسلمين ناجين حتى يكلفوا . فالدين الفطرى لـكل مولود هو الاسلام الا فيما يتعلق ببعض المعاملات الدنيوية كالارث ونحوه ، فان الاطفال فى ذلك تابعون لآبائهم .

(وبعد) فانا نريد أن نذكر لك وجه كون الاسلام دين الفطرة ، وأنه لو ترك الطفل وشأنه حتى كبر غير مهود ولا منصر لما اختار بفطرته الا الاسلام ، ولا يمكن توضيح ذلك الا بالبحث فى بعض أصول الاسلام وقواعده والاغراض التى يرمى اليها الشارع فى تكاليفه ، فنقول :

الفطرة والتوحيد

كل انسان يشعر بفطرته أن ثمة واحدا قد نظم هـذا العـالم ودبره ، لا يمكن أن يشابه الممكنات فى شىء من صفاتها ، فليس بجسم ولا عرض ولا محدود ولا متحيز . ولا يستطاع ادراكه الا بآثاره الشاخصة ، وهو غير قابل للحلول ولا للصعود ولا للنزول .

الى ذلك اهتدى الاعرابى بفطرته فقال : « البعرة تدل على البعير ، وأثر الاقدام يدل على المسير . فسماء ذات أبراج . وارض ذات فجاج ، كيف لا تدلان على اللطيف الخبير » . فجاء الاسلام مصدقا لما اقتضته الفطرة السليمة ولم يزد فى الاستدلال شيئا سوى أن أيقظ العقول ونبهها الى النظر فى آثار الله تعالى ، فما عليك الا أن تتصفح القرآن الكريم فتجد ذلك فى أكثر من آية من آياته .

نعم ربما قال انسان انه لو كان التوحيد فطريا لما اختلف الناس فى عقائدهم وتباينوا فى تصوير آلهتهم ، فذهبوا كما نعلم مذاهب شتى حتى لا تكاد تجد تشابها بين آلهتهم ، وسنحقق لك بعد أن هـذا مباين لمقتضى الفطرة ، اذ منشأ ذلك أن الانسان ميال الى الاعتماد على ما يقع تحت حواسه من الكائنات والى انكار ما ليس له فى ذهنه صورة ولا حدود محصورة .

فمن ذلك ما قصه الله فى شأن معاندى أهل الكتاب حيث قال : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات » .

ومن البديهى أن الشيء لا يصح انكاره الا اذا ثبت بالبرهان القطعى عدم وجوده ، أما مجرد عجز المدارك عن تصوره وتحديده والاحاطة به فمن العجب أن يتخذه ذو عقل برهانا ينفى به وجود الشيء ، واعجب من ذلك أن ترى أكثر المتحككين بأهل العلم فى هذا العصر على هذا المذهب العجيب الذى هو آية الجهل ونهاية الحمق .

جاء الاسلام فى وصف الحق واثباته بما يطابق مقتضى الفطرة والعقل تمام المطابقة ، أفلا تدبرت قوله تعالى : « الله لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الارض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » .

لقد جمعتنى المصادفة برجل مسلم من الانجليز ، لم يرج من اسلامه شيئا من حطام الدنيا ، ولا أن ينال جاها يتخذه عدة لنيل شيء من الرغائب السياسية ، فقال لى : « ان فى القرآن آية لا أمل من تكرارها ولا من ترديد النظر فيها ، جاءت فى وصف الله تعالى بما ليس فى استطاعة أحد من أئمة الاديان الاخرى ، على ذكائهم وسعة اطلاعهم ، أن يأتوا به » ، ثم تلا بالانجليزية تلك الآية الكريمة آية الكرسى. فبأبيك أيها العربى هل مرت تلك الآية مرة على سمعك الا وأنت لاه عنها تلعب ، أو حركت بها لسانك الا وأنت بها تعجل .

هذا وتتميما لموضوع التوحيد اريد أن آتيك هنا بكليمات

عثرت عليها (*) للورد ماكولى الكاتب الانجليزى الشهير اذ قال ما ترجمته :

« ان علماء المنطق قد بنوا عقائدهم وقضاياهم على البرهان العقلى ، فأمكنهم أن يسلموا القول بأن من الاشياء ما لا يمكن للعقل أن يحيط به ، بخلاف السواد الاعظم من العامة فان معظم أفكارهم وقضاياهم اما خيالية أو وهمية أو شعرية فلا يكادون يبنون شيئا من مذاهبهم ومعتقداتهم على نظر صحيح وفكر سليم ، ومن هنا نشأت كما يظهر الأديان الوثنية فى كل أمة وفى كل جيل فى كل زمن ، فاختلفت لذلك صورة الآلهة باختلاف ما صوره خيال معتقديها .

« ولطالما اذن فينا التاريخ ببيان ما أدخل اليهود قديما فى دينهم من البدع ، مستمسكين بما أملاه عليهم خيالهم الفاسد من ضرورة أن يكون لهم اله محسوس ملموس يقصدونه بالعبادة والاجلال . ويمكن القول بأن معظم الاسباب التى ذكرها (جيبون) وجعلها أساس انتشار الدين النصرانى لم تؤثر ذلك الأثر ولم تنشر ذلك الدين فى أطراف الارض الا لأنها كانت مشفوعة بكثير من تلك القضايا الوهمية التى كان لها أكبر سلطان على نفوس السذج من العامة ، فان الها لم يخلق وكائنا لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الظنون لم يقل به الا الفلاسفة العالمون، أما الأخلاط ضعاف العقول من الناس فانهم ضاقت دائرة أفكارهم وانقطعت سلسلة ادراكهم عن أن تصل الى القول باله ليس له صورة محدودة فى نفوسهم ، فكانوا يتأففون

---

* See the essay on Milton

ويهزأون ويضحكون من أولئك الفلاسفة ويرمونهم بالبله أو قصور الذهن .

« طاشت النفوس فى الأزمنة القديمة ، وضلت الصراط السوى ، وقست القلوب ، وانتهكت الحرمات ، فجاء المسيح عليه السلام وأخذ يعلم الناس ويدعوهم الى ما جاء به من الهدى فمنهم من آمن ومنهم من كفر .

« ولم يسلم تابعو المسيح من النصارى أن يصيبهم فى ايمانهم مثل ما أصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم ، فتمثل الاله لهم فى صورة آدمى مشى بينهم وشاركهم فى أغراضهم وما يعتريهم من الانحلال والاضمحلال ، كما كان يبكى على القبور وينام فى الحظائر ، ثم صلب حتى سال دمه على أعواد الصليب ، فظهروا بذلك للعالم فى لباس جديد من الوثنية ، ثم كان لهم من القسيسين والرهبان بعد ذلك لفيف من الآلهة على مثال ما كان لليونان ، فكان القديس جورج لديهم اله الحرب كما كان المريخ عند اليونان ، وكذلك اتخذوا العذراء وسيسيليا Cicilia وغيرهما آلهة للجمال وفنون الادب كما كانت الزهرة وسبع كواكب أخرى the muses آلهات لدى اليونان .. وهلم جرا ..

« ولطالما أخذ المفكرون من رؤساء الدين يزيلون ما لصق بعقول العامة من تلك الصور الوهمية ، ولكنهم لم يفلحوا .

« تجد العامة فى هذا اليوم يتعشقون سماع كثير مما لا معنى له من الخزعبلات ، ويتهافتون على تلقف سير بعض من لا قيمة لهم فى سوق الفضائل والمكرمات ، أكثر

مما يميلون الى تعـــرف وتفهم شيء من قواعـد الدين الأساسية » .

هذا ما قاله اللورد ماكولي في شأن الدين الذي يعتنقه ويذعن اه ، وفى الأمم التى شاركته فى الاخذ به وبيان أحوالهم وقد ذكرنيهذا ـ والحديث ذوشجون ـماأصاب عقول المسلمين من المس الذي أصاب عامة غيرهم ، أفرأيت الذين يذهبون الى الأضرحة فيعفرون وجوههم بترابهـــا ويتضرعون الى من فيها متوسلين بهم الى من هو أقرب اليهم واسمع لدعائهم وأقدر على اصابتهم وأحق بعبادتهم وخشوعهم ؟ « قل أفاتخـــذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . أاله مع الله . . أمر أن لا تعبدوا الا اياه ذلك الـدين القيم ولـكن أكثر الناس لا يعلمون » .

والخلاصة أن السبيل التي جاء بها الشرع الاســلامى فى الايمان بالله وتقديسه عن الحلول ومشابهة الغير وتوحيده بالعبادة دون كائن غيره هى السبيل التى يصل اليهـــا الانسان بفطرته متى خلى وشأنه غير مضلل ببعض الأباطيل ولا مدفوع الى غير تلك السبيل .

بسم الله الرحمن الرحيم (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد) .

النبوة والفرض الفطرى منها

ظهر النبى صلى الله عليه وسلم فى أمة أمية ، دينهـــا الوثنية ، ومن أخلاقها الكبر والفطرسة والعناد ، ووسائل ارتزاقهـــا السلب والنهب ، فلما جاءهم الرسول بالحق الواضح اختلفوا ، فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه .

كان معـاندو اليهود والمشركين يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام أن يثبت دعواه النبوة بشيء من المعجزات الخارقة للمادة ، فكان صلى الله عليه وسلم يرجع بهم الى الجواب عما هو من حدود وظيفة الرسل ، اذ لا علاقة عقلية بين دعوى الرسالة والقدرة على شق الارض ونحوه من المعجزات ، ولقد نقل عن ابن رشد ان الآيات الاقتراحية الخاصة بطلب المعجزات لا تدل دلالة قطعية على دعوى الرسالة إذ جاءت منفردة لانها ليست من أفعال الصفة التى سمى بها النبى نبيا أو الرسول رسولا ، ولذا كان النبى عليه السلام يرجع بالقوم الى ما هو من حدوده والى تدبر ما جاء به القرآن الـكريم من الهـداية ، فان دلالة القرآن على هذه الصفة كدلالة الابراء على الطب لمن يدعيه، قال تعالى : « وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ، قل انما الآيات عند الله ، وانما انا نذير مبين ، او لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » . ولطالما تنصل النبى صلى الله عليه وسلم من اجابة مطالب العرب ، وارشدهم الى ما قصد من شريعته وهو اصلاح شأن العالم الانسانى والقضاء على ما كان سائدا فيهم من الضلال المبين ، قال تعالى : « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم أنى ملك أن أتبع الا ما يوحى الى . قل هل يسـتوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » وجاء فى سورة الاسراء : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ، او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسـفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى

فى السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » .

كم حذر النبى صلى الله عليه وسلم الناس من اللجاج فى طلب المعجزات وبين لهم وخامة عواقبها وسوء نتائجها ، فمن ذلك قوله تعالى : « وما نرسل بالآيات الا تخويفا » وقال : « قل انى على بينة من ربى وكذبتم به ما عندى ما تستعجلون به ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ، قل لو ان عندى ما تستعجلون به لقضى الامر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين » .

لم يكن طلب المعجزات من النبى عليه السلام ناشئا عن ترو من العرب وصدق رأى وسلامة فطرة واصرار منهم على ألا يقبلوا شيئا الا ببرهان ، ولكنهم كانوا يقترحونها اما عبثا أو عنادا أو عملا بما تلقفوه عن الجاهلية الاولى وما أملت عليهم نفوسهم التى أخذ الضلال بتلابيبها ، فكان النبى عليه السلام يدعوهم الى العمل بمقتضيات الفطرة الانسانية ويطلب ما لا يخالف **سنة الله التى لن تجد لها** تبديلا ، قال تعالى : « وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل انما الآيات عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون . ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » . أراد الله الحكيم أن يبين للناس أن تلك الآيات التى يطلبونها لا تصلح مفحما لهم وحجة قائمة تلزمهم اتباع شرعه ، اذ مثلها فى ذلك مثل من ادعى أن ٢ + ٢ = ٥

وبرهن على ذلك بابرائه مريضا من داء عضال ، فان المدعى بها أتى من الامور العجيبة وخوارق العادات ما لا يستطيع أن يحمل أحدا على اعتقاد صحة دعواه التى أتى بها ، ومن هناك كان الأقدمون من اليهود وغيرهم يؤولون ما يأتى به انبياؤهم من المعجزات ، فقائل انها سحر وقائل انها من اعمال الجن المسخرة لهم ، حتى اذا ضاقت عليهم الأسباب لجأوا الى التماس أسباب أخرى غير معقولة كاعتذارهم بعجز افهامهم عن ادراك معنى تلك الآيات مع اصرارهم على الجحود والانكار ، كما قال تعالى : « وقالوا قلوبنا غلف » وقال تعالى : « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » فكانوا يقفون بعد أن تأتيهم الآيات موقف المحارب الله العابث بآياته فيصيبهم ما يصيبهم من العذاب والانتقام لما حاربوا الله ورسله وسخروا منهم وتلاعبوا بما جاءوا به من الآيات .

طالما كذب المشركون النبى صلى الله عليه وسلم ، كما فعل أسلافهم ، وناله من عنائهم ولجاجهم فى طلب المعجزات ومغالاتهم فى العناد ما كان يحزنه ويكاد يطلق لسانه أن يستعجل بهم السوء ، ولو كانت الخوارق فى يد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت من البراهين التى تصح لالزام الخصم وافحامه ، لما قعد بالنبى عليه السلام أمر عن الاتيان بها ، ولكنها كلمات الله التى لا مبدل لها وسنته التى لا تتغير ، وفطرته التى فطر الكون عليها « وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الارض او سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » .

والخلاصة اننا نرى القرآن فى غير موضع يؤذن فى أرباب العقول بالتدبر وأن لا يشطوا فى مطالبهم ولا يعتسفوا فى اقتراحاتهم ، بل أوجب عليهم أن يسلكوا الجادة الموصلة الى ما يريدون من الغايات . ومن البين أن القرآن هو المعجزة الخالدة الابدية التي جاء بها ذلك النبى الأمى عليه الصلاة والسلام حجة بالغة بين يديه ونورا مبينا يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ولذلك نرى القوم كلما اشرأبت نفوسهم الى نزول احدى المعجزات أمرهم الله بتدبر آيات القرآن الكريم .

القرآن والفطرة البشريه

نزل القرآن الكريم ليؤدى ما قصد منه حسب الفطرة البشرية والسنة الالهية من الهداية من الضلالة والشفاء من الجهالة ، وما زال القرآن اماما يتبع وفيصلا يحكم فى النوازل ، حتى ساد الجهل وأخذ من المسلمين مأخذه ، فاستعملوا آيات من القرآن فى غير ما وضعت له ، فاتخذوها للتطبيب والفتك بالأعداء وكشف عالم الغيب وقضاء الحاجات وحل الطلسمات وتسخير الجن وتوسيع الرزق ، وليتهم وقفوا عند ذلك الحد ، بل تراهم تطرفوا واجترأوا على القرآن ومنزله ، فأولوا القرآن طبقا لأهوائهم وأخرجوا كثيرا من آياته عن معانيها التى تفهم من لغته وأسلوبه وسياقه ، أما رأيتهم كيف يفهمون قوله تعالى : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » وقوله : « شفاء لما في الصدور » وقوله : « لهم ما يشاءون عند

ربهم » وقوله : « حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما » وقوله : « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » وقوله : « ألم نجعل الارض مهادا والجبال أوتادا » الى نحو ذلك من الآيات .

وان شئت أن تعرف ما أتى به بعض المفسرين فى تفسير هذه الآيات وأمثالها من الافك المبين والجهل الفاضح فارجع الى ما كتبوا . ولنضرب لك مثلا شيئا مما كتبوه فنقول:

١ ـ جاء فى الجزء الثانى عشر من تفسير الطبرى عند الكلام على قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين » حديث موضوع فى وصف سفينة نوح حيث قال عن ابن جريج أنه قال كانت السفينة أعلاها للطير ووسطها للناس وفى اسفلها السباع وكان طولها فى الجو ثلاثين ذراعا ودفعت من عين وردة يوم الجمعة لعشر ليال مضين من رجب وأرست على الجودى يوم عاشوراء ومرت بالبيت فطافت به سبعا وقد رفعه الله من الغرق ثم جاءت اليمن ثم رجعت ... ا هـ .

٢ ـ وجاء فى كثير من التفاسير فى تأويل قوله تعالى : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » ـ فى سورة الرعد ـ أن الضمير فى « له » عائد الى من ذكر اسم الله وان المعقبات الملائكة تتعقب على العبد ، وذلك أن ملائكة الليل اذا صعدت أعقبتها ملائكة النهار . فاذا انقضى النهار صعدت ملائكته ثم أعقبتها ملائكة الليل، ورووا فى ذلك حديثا عن كنانة العدوى قال : دخل عثمان بن عفان على رسول الله فقال : أخبرنى عن العبد كم معه من

ملك . قال ملك على يمينك على حسناتك وهو امين على الذى على الشمال ... وملكان من بين يديك ومن خلفك . يقول الله « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » وملك قابض على ناصيتك ، فاذا تواضعت لله رفعك ، واذا تجبرت على الله قصمك، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك الا الصلاة على محمد عليه الصلاة والسلام ، وملك على فيك لا يدع الحية تدخل اليه ، وملكان على يمينك ، فهؤلاء عشرة ملائكة على كل آدمى وابليس بالنهار وولده بالليل .. اهـ

ولا يخفى أن هذا الحديث مكذوب على حضرة النبى (ص)، على انه مع ذلك سخيف العبارة ساقطها . وأغرب من ذلك حمل القرآن عليه وتأويله به ، مع أن سياق الآية لا يكاد يحتمله بوجه من الوجوه ، فان سياق الآية كان فى التكلم على علم الله واحاطته بجميع الكائنات ، وعلى عظمته وتعاليه المتناهى الذى يغلب معه كل مغالب ولا يقى الانسان دونه اى حافظ ، اذ قال : « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » . فالمستخفى بالليل والسارب بالنهار المتخذان لهما حرسا سواء عند الله فلا الاستخفاء بحاجب المستخفى عن الله ولا الحرس يدفع عن الانسان ما يقضى به الله على عباده . ثم بينت الآية أن سنة الله فى خلقه ربط الاسباب بمسبباتها ، فخفاء الاسباب أو كتمانها لا يحول دون تحقق نتائجها ، فان الله الذى جعل ذلك الرباط ــ رباط السببية ــ مطلع على خفايا الامور محيط بما تخفيه الضمائر ، فلا يغير الله ما بقوم حتى

يغيروا ما بأنفسهم ، فاذا تحققت أسباب أى قضاء وأراد الله تعالى تحقيق ذلك فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ، فلا ينفع الانسان اذ ذاك حرس كثيف يتعقب عليه دائما يقيه شر الحوادث .

هذا ما يفهم من الآية وسياقها فعجبا لأولئك المفسرين ارادوا أن يؤولوها ذلك التأويل الشاذ ، فلما لم يساعدهم على ذلك نظم الآية قالوا ان الضمير فى قوله تعالى « له معقبات » يعود على من ذكر اسم الله تعالى ، وهذا لا أثر له أصلا فى الآية .

٣ ـ ومن ذلك ما قاله بعضهم في تأويل قوله تعالى : « تنزل الملائكة والروح فيها » بسورة القدر ـ حيث فسر الروح بأنه ملك لو التقم السموات السبع والارضين السبع كانت له لقمة واحدة ، أو هو ملك رأسه تحت العرش ورجلاه فى آخر الأرض السابعة وله ألف رأس كل رأس أعظم من الدنيا وفى كل وجه ألف فم . . الى آخر السلسلة المعروفة ، فانظر الى هذه الخزعبلات التى يحملون عليها كتاب الله تعالى .

٤ ـ ومن ذلك أيضا ما أتى به كثير من المفسرين فى تأويل قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » اختلف أهل التأويل فى ذلك . فقال بعضهم : يمحو الله ما يشاء من أمور عباده فيغيره الا الشقاء والسعادة فانهما لا يغيران ، وزاد بعضهم الحياة والموت ، ثم انقسموا فقال بعضهم ان ذلك فى ليالى القدر ، وقال بعضهم انه فى ليلة النصف من شعبان . وقال آخرون ان ذلك فى كل ليلة . ففى تفسير ابن جرير عن أبى الدرداء قال : (قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله ينزل فى ثلاث ساعات يبقين من الليل ، يفتح الذكر فى الساعة الاولى الذى لم يره أحد غيره يمحو ما يشاء ريثبت ما يشاء . وقال أيضا : ان الله يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يبقين من الليل فى الســـاعة الاولى منهن ينظر فى الـكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء) واذا شئت أن تستقصي ما قالوه فى أمثال هذه الموضوعات فعليك بكتبهم .

دعاء نصف شعبان

ولعلك تتطلع نفسك الى تفهم معنى المحو والاثبات هنا ، فنقول : قبل أن نحقق لك معناهما نذكر لك الآية بتمامها ليتجلى لك معناها .

قال تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » .

انقسم أهل الكتاب على النبى عليه الصلاة والسلام فمنهم احزاب كانوا يفرحون بما أنزل عليه من الاحكام ، كما كان من الاحزاب من ينكر بعضها ويستقبح ما كان يفعله المصطفى صلى الله عليه وسلم من التزوج والاكل والشرب ونحوها من اعمال الدنيا « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق » وكذلك كانوا كلما سألوا المصطفى صلى الله عليه وسلم شيئا من الآيات الخارقة للعادة كاغاضة المياه ونقل الجبال واحياء الموتى لا يجيبهم الى شيء من مطالبهم واقتراحاتهم كما قدمنا ، فكانوا يستضعفونه وينزلون من

شأنه ويعتبرونه عاجزا لا ينبغى له أن يدعى النبوة ، فرد الله على أولئك القوم ، وبين لهم أن تلك الاشياء لا تنافى الرسالة فى شىء فقال : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية » كما بين أن التصرف فى الكون والاتيان بخوارق العادات ليس الا الله تعالى فقال « وما كان لرسول ان يأتى بآية الا باذن الله » فهو الذى يمحو ما يشاء محوه ، ويثبت ما يشاء اثباته ، طبقا لما سبق فى علمه القديم ، كما يدل عليه قوله تعالى : «وعنده أم الكتاب» . اذ معنى أم الكتاب أصله ، وأصله هو العلم القديم الذى لا تتعلق قدرة ولا ارادة بشىء الا طبقا له . وبالجملة انه لم يقصد من قوله تعالى « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب » الا مجرد تأكيد ما استفيد من قوله قبل ذلك : « وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله » . هذا هو معنى الآية الكريمة فاضرب بغيره عرض الحائط ولا تبال ، ولأحذرك مما يعتقده بعض الناس مستدلين بهذه الآية من ان الله تعالى قد يغير ما سبق فى علمه الا الشقاءوالسعادة، فان هذا يفضى الى القول بأن علم الله القديم ينقلب جهلا ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. فالحذر الحذرمن قراءةالدعاء المشهور المعتاد قراءته فى ليلة النصف من شهر شعبان اذ ورد فيه : « اللهم ان كنت كتبتنى عندك فى أم الكتاب شقيا أو محروما أو مطرودا أو مقترا على فى الرزق فامح اللهم بفضلك شقاوتى وحرمانى الخ » فان معنى ذلك ان الداعى يسأل الله ان يغير ما سبق علمه أزلا الى ما هو من مشتهيات نفس الداعى ، وان انقلب علم الله بذلك جهلا .

اعداء القرآن

عاش النبى صلى الله عليه وسلم ما عاش ، ثم مضى السلف الصالح من بعده ، فما سمع أن أحدا منهم فهم من القرآن الا ما يدل عليه من حيث هو كتاب عربى مبين ، ثم خلف من بعدهم خلف افتأتوا على النبى وصالح أتباعه، وبرزوا للعالم فيما شاءوا من القحة والدعارة مدعين أنهم أعلم بما فى غضون كتاب الله ممن أنزل عليه ذلك الكتاب، فتجلوا للقرآن أعداء فى ثياب أصدقاء ، يلزمونه بما ينكره، ويحملونه ما لا يحتمله ، ويفسرونه طبقا لأهوائهم ، ويكلفونه من التأويل ما يكاد يخرجه عن الفرض الذى أنزل لأجله ، والله يقول : « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا » ويقول : « انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » ويقول : « الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا » وكذلك يقول : « قد جاءكم من الله نور وكتـــاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه » ولقد أتى القرآن بما يضيق المقام عن استقصائه من أمثال تلك الآيات التى تنطق ببيان الفرض الذى جاء له القرآن الكريم .

غفل أكثر المفسرين ، أو جهلوا الفرض الذى أنزل له هذا الكتاب الكريم ، كما كلت أفهامهم عن ادراك أمثال تلك الآيات الناطقة بما يرمى اليه ، فقالوا ان القرآن لم يترك فنا من الفنون العلمية الا أتى بشىء من مسائله ،

فجعلوه كتاب جغرافيا وتاريخ وطبيعة ورياضة وهلم جرا، وادعو انه أتى من كل فن بطرف ، فحملوا من التأويل ماينبو عنه ، ثم ذيلوا آياته بأشياء أملاها عليهم جهلهم ، ووسوست لهم بها شـــــياطينهم ، فشوهوه وألبسوه غير لباسه ، وصبغوه صبغة أبرزت القرآن والدين وصالح المسلمين بما هم براء منه ، فكانوا أضر عليهم من العدو المبين .

لنرجع الى ما ذكره أولئك المفسرون فى شرح ارم ذات العماد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، والى ما قالوه فى أمر الزلازل والثور الحـامل للأرض ، ووصف يأجوج ومأجوج وما سيقيمون من الحرب العوان حينما يرمون السماء بالنبال لمحـاربة الحق تعالى فيأمر الله السماء أن تمطر عليهم دما ، الى آخر ما قالوا ، كما ألفتك الى ما قالوه فى تعليل ما يشعر به الانسان من سخونة مياه الآبار فى الشتاء ، وبرودتها فى الصيف ، اذ عللوا ذلك بأن ليالى الشتاء طويلة ، ولما كانت الشمس تغرب فتدخل فى جوف الارض كان تأثيرها فى المياه التى فى جوف الارض أثناء الشتاء أكبر من تأثيرها فى أثناء الصيف ، هذا بعض ما أتى به أولئك المفسرون ليتمموا به كلام الله تعالى ، فأضحكوا منهم الصبية والبله ، فضلا عن العقــلاء من الناس ، كمــا أنهم حملوا غير المسلمين على الاستهزاء بالدين والسخرية بالقرآن الحكيم ، فلقد رأيت للقرآن ترجمة بالانكليزية يأتى واضعها بما سطر أولئك الجهلة المتعالمون ، ثم يعقب ذلك بما شاء من الانتقــاء والتشهير بدين ذلك الكتاب ، وأولئك ائمته ، فيا لله من الصديق الجاهل .

كبر على كثير من الناس القول بأن القرآن كتاب مبين يفهمه كل من يعرف لسانه ، فجعلوا يحومون حول المعانى

البعيدة ليحملوا عليها آيات القرآن . ألم تر الى الذين ضلوا وأضلوا فجعلوا للقرآن تفسيرين : أحدهما باطني ، والآخر ظاهرى ، وادعوا أن الرسول الذى أتى به لم يصل الى ادراك ما فيه من المعانى الباطنية ، مع انه يقول ما معناه : أنا أعلم بكتاب الله تعالى ، ولو علمت بأعلم منى لرحلت اليه ، أو كما قال .

أرعني سمعك أقص عليك أن المتدبر للقرآن يرى أن النبى صلى الله عليه وسلم ما سئل فى شىء مما لم يبعث لأجله الا صرف السائل عن قصده ، وتلقاه بغير ما يترقب تنبيها الى أنه الأولى بالقصد والأليق بما هو من حدود الرسل ، ووظائفهم من الهداية والارشاد وتبليغ الشرائع، ينوه الى ذلك قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » وقوله : « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » وقوله : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها . فيم أنت من ذكراها . الى ربك منتهاها . انما أنت منذر من يخشاها » فبين الله فى هذه الأيات أن وظيفة الرسل الانذار وتحذير العالم من تلك الساعة التى هى آتية لا ريب فيها ، وليس وظيفتهم تعيين وقتها . ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا . فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا امتا » تدل هذه الآية وما سبق على ما قلناه لك آنفا من ان النبى صلى الله عليه وسلم فى اجابته أمثال أولئك السائلين كان يعلمهم أن لا يسألوا الا عما هو من خصيصات الرسالة ومتعلقاتها ، رجوعا بهم الى السنة الفطرية .

هل أسس الاسلام على السيف ؟

لهج معظم الاوربيين ، وضعاف العقول من المسلمين ، بأن الاسلام لم ينتشر ولم ترسخ قدمه فى عالم الوجود الا لأنه سعى والسيوف أمامه تمهد له السبيل ، وتذلل بين يديه العظماء ، وتلجىء المستضعفين الى اعتناقه حقنا لدمائهم ، وصيانة لأملاكهم وأسبابهم ، وقد ضربوا الامثال بما قام به النبى صلى الله عليه وسلم من سراياه ومغازيه، ثم بما عمل خلفاؤه من بعده ، على أنهم لو قرأوا القرآن ، وشيئا من التاريخ ، وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وعرفوا شيئا من أخلاق العرب وعاداتهم فى ذلك الوقت ، لما تطرق ذلك الخطأ الى عقولهم ، ولا استحوذت عليهم وساوس صدورهم ، حتى يرموا النبى صلى الله عليه وسلم وصالح سلفه بما هم براء منه . نعم انه لا يسعنى أن أنكر انه قد وجد من امراء المسلمين من شوهوا وجه الاسلام ، ودنسوه بما جنت أيديهم عليه ، ولكننى اريد ان أتكلم هنا فى الاسلام من حيث هو ، كما اريد أن آتى على نبذ من تاريخ أسباب غزوات النبى صلى الله عليه وسلم وحروبه، لترى أنه صلى الله عليه وسلم ما بدأ أحدا بعدوان فى جميع ما أقامه من الحروب ، وما يتذكر الا أولو الالباب.

لا حاجة الى أن أذكر هنا ما كان عليه فى بدء الدعوة من الانفراد والضعف ، وما اصابه من أهله وأقاربه من الاذى، فان هذا ما لا يرتاب فيه أحد .

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، فجعل النبى يسر بدعوته الى من يثق بتوقد فكره ، وتمكن الانصاف من قلبه ، فلم يسل لتأييد رسالته الا سيف الهدى والحجة

الدامغة ، فممن آمن به ابو بكر وعثمان والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وأبو ذر الغفارى ، ومن السابقين الى الاسلام خالد بن الوليد جاء النبى فقال له : « الام تدعو يا محمد ؟» فقال : « أدعوك الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، والاحسان الى والديك ، وأن لا تقتل ولدك خشية الفقر ، وأن لا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن، وأن لا تقتل نفسا حرم الله قتلها الا بالحق ، وأن لا تقرب مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأن توفى الكيل والميزان بالقسط ، وأن تعدل فى قولك ولو كان على ذوى قرباك ، وان توفى لمن عاهدت » ، فأسلم ، وهكذا دخل هؤلاء الأشراف فى الاسلام غير مهددين ولا ملجئين ، ولكن طائعين منصفين مدركين الفرق بين ما كانوا عليه من الضلال ، وما أتاهم به هذا الدين الحنيف . ولم يدفعهم الى الدخول فى الاسلام اذ ذاك رغبة فى جاه ، ولا توقع ثروة ولا فقر مدقع ، فان أكثرهم كانوا أوسع ثروة ، وأعظم جاها ، وأقوى عصبية ، وأنفذ كلمة من ذلك الفرد الذى اطاعوه ، وتبعوا شرعه ، واحتملوا الاذى فى تأييده « لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » .

ثم جهر النبى صلى الله عليه وسلم بالدعوة ، فسخرت منه قريش ، وكانوا يضحكون منه فى مجالسهم ، وهو مع ذلك لا يثنى عزمه ، ولا يرجع عن تسفيه أحلامهم ، وتقبيح آلهتهم ، فاضمروا له العداء والبغضاء ثم جاءوا الى أبى طالب عمه وقالوا له : ان لك شأنا وشرفا ومنزلة منا ، وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا

وعيب آلهتنا ، فاما أن تكفه أو ننازله واياك ، حتى يهلك أحد الفريقين . ثم انصرفوا ، فعظم على أبى طالب فراق قومه ، ولم تطب نفسه بخذلان ابن أخيه . فقال له : يا ابن أخي ، أبق على نفسـك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيقه . فظن الرسول أن عمه خاذله ، فقال : والله يا عم لو وضعوا الشمس في يمينى ، والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الامر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه . ثم بكى وولى . وقد صادف النبى على أثر ذلك من أذى قريش ومناوأتهم واعتسافهم ومؤامراتهم ما خلد فى التاريخ . ومن ذلك ما رواه البخارى قال : « بينما النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فى حجر الكعبة اذ أقبل عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه فى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر حتى اخذ بمنكبه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » .

ولقد عم الأذى جميع من أسلموا حتى لم يبق أحد الا أصابه منه حظ كبير . ذلك أبو بكر الذى كان فى الجاهلية سيدا شريفا اشتد عليه أذى قريش ، حتى أجمع رأيه على الهجرة الى الحبشة لولا أن عاقد له ابن الدغنة على أن يعبد الله فى داره فيصلى فيها ما شاء ، ويقرأ ما شاء ولا يؤذى قريشا بالاستعلاء به خشية أن تفتن نساؤهم وأبناؤهم ، فلما ابتنى أبو بكر مسجدا بجوار داره يتعبد فيه أتى ابن الدغنة أبا بكر فقال : قد علمت الذى عاقدت الله عليه ،

فاما أن تقتصر على ذلك ، واما أن ترجع الى ذمتى ، فانى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له . فقال أبو بكر : فانى أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله (كما فى البخارى بتصرف) .

تفاقم الخطب ، وأحدقت الفتن بالمسلمين ، حتى عجزوا عن احتمالها ، فأشار النبى صلى الله عليه وسلم عليهم بالهجرة الى بلاد الحبشة ، فهاجر منهم عشرة رجال وخمس نسوة ، فلما أعيت قريشا الحيل ، عزموا على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب واخراجهم من مكة والتضييق عليهم حتى يسلموا محمدا صلى الله عليه وسلم للقتل . وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها فى جوف الكعبة ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة . فهاجر معظمهم .

ولما رأى النبى صلى الله عليه وسلم من قريش ما رأى جعل يخرج فى الاسواق العربية ، ويعرض نفسه على القبائل ليحموه ، فكان منهم من يرده ردا جميلا ، ومنهم من يلقى عليه قولا ثقيلا ، حتى اذا جاء رؤساء الأوس الى مكة ليحالفوا قريشا على الخزرج جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « هل لكم فى خير مما جئتم له ، أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئا » ثم تلا عليهم القرآن ولم يمض الا قليل حتى آمن به بعضهم وصدقوه فيما جاء به ، ثم أخذ عدد المسلمين من الاوس والخزرج يزداد قليلا قليلا ، فأثار ذلك من حنق قريش وسخطهم حتى لقد جعلوا يغلون فى ايذائهم للنبى على ما هو فى

كتب السنة الصحيحة . فلما علموا بما حالف الانصار عليه النبى صلى الله عليه وسلم أجمعوا أمرهم على أن يقتلوه ، واتفقوا على أن يأخذوا من كل قبيلة شابا جلدا ويجتمعوا امام داره ، فاذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يقدر بنو عبد مناف على محاربة قريش كلها ، فألهم الله النبى صلى الله عليه وسلم جميع ما دبر له أعداؤه ، فخرج هو وصاحبه أبو بكر الى المدينة لينزل فيمن عززوه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه .

أسباب الغزوات

هكذا كان مجمل بدء الدعوة الاسلامية ، واننى هنا لواثق أنه لا يكاد يوجد من المعارضين من يستطيع التبجح فينكر شيئا من ذلك ، أو يدعى أن سيفا أعمل فى خلال تلك السنين . فما على الا أن أسرد لك أسباب ما كان بعد ذلك من الغزوات والسرايا مختارا أشدها وأهمها في اظهار الدين ، فأقول : أباح الله لرسوله محاربة من آذاه من كفار قريش ، وأخرجوه هو وأصحابه من ديارهم فقال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » وقال : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل . ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فان

الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » فلم يبح الله للنبى مقاتلة غير كفار قريش لما ناله منهم ، فلما تمالأ على المسلمين غيرهم من قبائل العرب ، أباح الله للنبى أن يقاتل كل معتد عليه فقال : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » وقال : « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » فانظر الى ما شرعه الله للمسلمين من القتال، أتجده يخالف فى شىء ما يسمى فى هـذا الزمان بقتال المدافعة عن النفس ؟ كلا . فلقد نهى الله المسلمين عن الاعتداء ، ولم يبح لهم الا مقـاتلة الظالمين البادئين بمقاتلتهم .

شرع الله قتال أهل مكة لما اعتدوا على النبى صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله ، وأخرجوه من دياره هو وأصحابه لأجل اضعاف شوكتهم وفل غرورهم ، حتى لا يتمكنوا من العودة الى محاولة قضاء مآربهم من النبى صلى الله عليه وسلم ، فانه كبر عليهم خروجه ووجوده فيمن حالفوه على النصر والتأييد ، فكانوا يتحينون الفرص للايقاع به والقضـاء على دينه وشيعته ، فلو تركوا بلا مناوشة لاستفحل أمرهم ، ولضاق ذرع المسلمين عن مقاومتهم ، فكان من الحزم وسداد الرأى أن يقعد النبى صلى الله عليه وسلم لهم كل مرصد ويضيق عليهم السبل ، فكان يرسل السرايا ، ويخرج بنفسه فى المغازى ، حتى لا تمر عير لقريش الا صادرها ، وحرم المشركين مما فيهـا من الامتعة ، فكان مرة يصيب منهم ، وتارة يخطئهم . فمن

اكبر الغزوات التى انتصر فيها المسلمون غزوة بدر الكبرى، خرج النبى صلى الله عليه وسلم مترصدا أعظم عير لقريش آتية من الشـــــام جمع فيهـــــا غالب أموال قريش حتى لم يبق بمكة قرشى ولا قرشية لهما مثقال فصاعدا الا بعثا به فى تلك العير .

فلما علم أبو سفيان بخروج الرسول فى رجاله أرسل الى قريش فنفروا سراعا لحماية تجارتهم ، وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا ، فالتقى الجمعان ، وكان ما كان من نصرة المسلمين على ضعفهم وقلة عددهم « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » .

***

وكان يهود المدينة يضمرون البغضـــــاء للمســـلمين ويتشوقون أن يصيبهم من أهل مكة ما لا قبل لهم به ، فلما كانت وقعة بدر الكبرى التى أيد الله فيها نبيه عليه الصلاة والسلام والمسلمين نبذوا ما كانوا عاهدوا عليـــه الرســـــول ، فبدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ، فلقد قال رؤساؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقد حذرهم عاقبة البغى : « لا يغرنك يا محمد ما لقيت من قومك فانهم لا علم لهم بالحرب ولئن لقيتنا لتعلمن من تلاقى » فبنقضهم ميثاقهم ، وبدئهم بالعداء سار اليهم النبى صلى الله عليه وسلم وحاصرهم خمس عشرة ليلة ، فلما آنسوا من أنفسهم الضعف ، واستولى على أفئدتهم الرعب ، سألوا الرسول أن يخلى سبيلهم فيخرجوا من المدينة ، ولهم النساء والذرية ، وللمسلمين الاموال ، فقبل منهم ذلك .

وقد عزم النبى صلى الله عليه وسلم على الذهاب الى مكة ، لتأدية نسك العمرة ، فخرج فى ألف وخمسمائة من اصحابه ومعهم الهدى ايذانا بأنه لم يذهب الى مكة محاربا، فساروا حتى نزلوا بأقصى الحديبية ، ثم أن الرسول اختار عثمان بن عفان سفيرا الى قريش ليعلمهم مقصده ، فذهب عثمان وبلغ ما حمل ، فقالت قريش : ان محمدا لا يدخلها عنوة أبدا ، ثم انهم حبسوه . فشاع أن عثمان قتل ، فقال عليه الصلاة والسلام حينما بلغه ذلك الخبر : « لا نبرح حتى نناجزهم الحرب » . وبايع أصحابه على القتال ، فخافت لذلك قريش ، فأرسلت سهيل بن عمرو فى طلب الصلح ، فوضعت الحرب أوزارها على ما تراضوا عليه من الشروط التى منها وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنين .

ثم انصرف النبى والمسلمون قافلين الى المدينة فى تلك السنة ، وعادوا لقضاء عمرتهم فى العام التالى ، ثم عمل النبى صلى الله عليه وسلم بمقتضى شروط الصلح ، فلم يخفر ذمة ، ولم ينقض عهدا ، حتى بدأت قريش بالعدوان .

ذلك أنه قد دخل فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم قبيلة يقال لها خزاعة ، كما دخل فى عهد قريش قبيلة أخرى يقال لها بكر ، وكان بين هاتين القبيلتين أضغان كثيرة، وترات قديمة ، فاتفق أن رجلا من بكر وقف يتغنى ذات يوم بهجاء النبى صلى الله عليه وسلم على مسمع من رجل خزاعى ، فقام هذا فضربه ، فأثار ذلك كامن أحقاد بكر

واستشاطوا غضبا . فاستعانوا بقريش على الفتك بقبيلة خزاعة . فأمدتهم قريش بالعدة والرجال ، ثم انقضوا على خزاعة على غرة منهم . وقتلوا منهم ، فأرسلت خزاعة الى النبى صلى الله عليه وسلم تخبره بما جرى من قريش وبكر حليفتها .

أما قريش فانها استيقظت فرأت أنها قد نقضت بفعلتها هذه شرائط عقد الصلح الذى تم بينها وبين المسلمين ، فندمت على هذه الفارطة التى ارتكبتها بلا ترو ولا تبصر ، فأرسلت اذ ذاك أبا سفيان زعيمها الى المدينة ليوثق عرى الصلح ، ويمـــد فى أجله ، فخرج حتى جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم وعرض عليه ما جاء به الى المدينة ، فقال له عليه الصلاة والسلام : هل كان من حدث بعد . قال : لا . فقال الرسول : فنحن على مدتنا الاولى وصلحنا السابق ، ولم يزد على ذلك . ومن المعلوم أن قريشا بفعلتها قد اعتبرت محاربة حسبما تقتضيه شروط الصلح السابق، وقد شعر زعيمها بما أضمره النبى صلى الله عليه وسلم لقريش ، فتوسل اليه ببعض وجوه العرب وزعمائهم فلم يفلح .

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فانه أمر أصحابه أن يتأهبوا للسفر ، وأخبر أبا بكر بما عزم عليه ، فقـــال له ابو بكر : أو ليس بينك وبين قريش عهد ؟ قال : نعم ، ولكن غدروا ونقضوا . ثم استنفر الاعراب الذين حـول المدينة ، وسار النبى صلى الله عليه وسلم فى عشرة آلاف مقاتل الى مكة ، حتى اذا وصل اليها أمر خالد بن الوليد

ان يدخل من أسفل مكة ، ودخل هو من أعلاها ، ونادى مناديه : « الا من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » . نعم انه أهدر دم جماعة وان تعلقوا بأستار الكعبة ، لأنه اعتبرهم ، كما يقال فى هذا العصر «مجرمين سياسيين»

واعلم أنه لم يقاتل فى هذا الفتح الا جيش خالد بن الوليد ، ولكن بعد أن تعرضت له قريش ليصدوه عن دخول مكة ، فقتل منهم أربعة وعشرين رجلا ، وقتل من جيشه اثنان ، فكان دخوله مكة عنوة .

ثم أخذ النبى عليه الصلاة والسلام يطهر الكعبة مما كان عليها من الاوثان والادناس ، ثم خطب فى الناس ، فبين كثيرا من الاحكام ، ثم ختم خطبته بقوله تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » .

ومن آدابه صلى الله عليه وسلم وشيمه الكريمة ، ماورد فى كتب السنة الصحيحة من أن رجلا جاء عقب فتح مكة ، ليبايع النبى عليه الصلاة والسلام ، فجاء وهو يرتعد خوفا ، فقال له الرسول : « هون عليك فانى لست بملك ، انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

***

وعلى أثر هذا الفتح المبين ، وتدمير عصابة الوثنيين ، أخذ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، الا بعض قبائل أدركتها حمية الجاهلية الاولى ، فلقد اجتمعت أشراف هوازن وثقيف ، وقالوا : لقد فرغ محمد (صلى الله عليه وسلم) من قتال قومه ، ولا ناهية له عنا ، فلنغزه قبل أن

يغزونا . أما النبى صلى الله عليه وسلم فانه لما بلغه خبر استعدادهم لحربه ، أجمع رأيه على المسير اليهم ، فخرج فى اثنى عشر ألفا حتى وصل الى العدو ، فالتحم الجمعان وذلك يوم حنين اذ أعجب المسلمين كثرتهم ، فلم تغن عنهم شيئا ، وضاقت عليهم الارض بما رحبت حتى ولوا مدبرين ، لولا ان الله أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأيدهم بروح منه ، فلم ينته القتال حتى جعل الله كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمته هى العليا ، والله عزيز حكيم .

هذه هى جل الغزوات واقواها فى تأييد الاسلام واعلاء كلمته وتقوية سلطانه . فهل رايت فى جميع ما قصصته عليك ، وانه لحق ، ان النبى بدأ أحدا بعدوان ؟ كيف وهذا كتاب الله يقول : « لا عدوان الا على الظالمين » .

ارجع الى كتب السير ، وجرد نفسك من شوائب التحيز ، فلن تجد مغمز ابرة للشك فيما قصصته عليك .

***

وخلاصة القول أن البصير بالتاريخ ، يشهد معنا ان المصطفى عليه الصلاة والسلام لم يسل فى حياته سيفا لارغام أحد من الناس على الدخول فى دينه ، ولكن الهدى هدى الله يهدى من يشاء .

ما كان للنبى والمؤمنين أن يدعوا الى الله ودينه ، سالكين طرق العسف والارهاب ، وهذا كتاب الله يأمرهم بالحسنى فى الدعوة ، كما قال : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » ، وقال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » .

انظر الى ابداع كتـــاب الله فى الرد على أهل الـكتاب القائلين بأبوة الله للمسيح ، مع اشتماله على أحسن آداب المحاجة ، حيث يقول : « ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة تم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الـكتاب وبمـا كنتم تدرسون » .

دعوة النبى « ص » عامة لجميع المكلفين

اعتاد الناس أن يقيسوا أحكام الله السماوية بقوانين البشر الوضعية ، فتراهم يتشدقون بأن الاحكام يجب أن تكون مناسبة للأزمان ، مختلفة باختلاف أهلها ، فيراعى فى القوانين والشرائع الاماكن ، وطبقات العالم ، ودرجات ارتقائها فى التحضر ، والفضل والتهـــذيب ونحوها من الصفات ، التى تتفاضل فيها الامم ، وتتفاوت طبقاتهـا باعتبارها ، ثم كأنك بهم وقد طفرت عقولهم ، فحكموا بأن شرائع الاسلام وسننه جاء بها نبى عربى ، لم يعرف من أحوال الامم الاخرى الا قليلا جدا ، كمـــا أنه لم يعلم ما سيتوالى بعده من الامم المختلفة ، والاحوال المتباينة ، والعصور التى تكاد تكون متباينة فى مقتضياتها ومطالبهـا وأحكامها .

فكأنى بأمثال أولئك القـــوم ، قد أقاموا على أنفسهم الحجة ، بأنهم لا يفقهون ما يتلى عليهم من كتاب الله تعالى ، يسمعون القرآن ، وانما مثله فيهم كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء ، ويرون آياته بأعينهم ، وانهـــا لا تعمى الابصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

الاسلام صالح لكل زمان

فبما بسطت لك هنا من أمر أولئك القوم ، أريد أن آتيك هنا بوجه كون الدين الاسلامى ، دين الفطرة البشرية التى فطر الله الناس عليها فى كل زمان ومكان ، صالحا لكل أمة وكل جيل ، مصلحا لكل من استمسك بسببه المتين ، وعمل بكتابه المبين .

اعلم أن دين الله فى كل الامم واحد لا تختلف أصوله باختلاف الامم وأحوالها وأزمانها وأمكنتها ، وانما الذى يختلف باختلاف ذلك هو الاحكام الفرعية ، يشير الى ذلك قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » وقوله تعالى : انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده » الآية .

جاء الرسول عليه الصلاة والسلام لتقرير الحق والاعتراف به ، وتذكير الناس أن يتمسكوا به ، فما كان له ان يبطل حقا ، أو ينكر صالحا ، أو يجحد نبيا ، أو يستقبح حسنا ، ولكنه جاء مؤذنا فينا بأنه قد آمن بما أنزل الله من كتاب ، وأنه آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله غير مفرق بين أحد من رسله ، كما أخبرنا عليه الصلاة والسلام بأن الله أوحى اليه ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وبأن من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا . فلم يأت النبى صلى الله عليه وسلم ببدع من الشرائع ، ولكن بما قرره الله من الحق ، وأوحى به الى أنبيائه من قبل ، كما قال عز من قائل : « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا

لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » على اننا نعلم ما تقرر في الاسلام من أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ ، فترى من جميع ما تقدم أن الاسلام لم يخالف مقتضى الفطرة السليمة فى اعتبار ما سبق من الشرائع والاخذ بما تقرر من النواميس العادلة ، سواء ورد بها دين ابراهيم ، أو دين عيسى بن مريم أو غيرهما . نعم ان الاسلام نسخ بعض ما فرض الله على الماضين من الكلف الشاقة ، التى جلبها عليهم عنادهم وظلمهم ، كما قال تعالى : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات ، أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم اموال الناس بالباطل » ، فانهم لم يزالوا كذلك ، حتى جاء المصطفى عليه الصلاة والسلام حريصا على المؤمنين رؤوفا بهم رحيما لهم ، فأباح الطيبات من الرزق ، ولم يكلف نفسا الا وسعها ، فكان دينه بذلك أكثر الاديان ملاءمة للطباع ، والعادات ، والقوى البشرية على اختلافها . ولذا كان عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين .

ربما قيل كيف ذلك ؟ مع أن أكثر الاحكام النظامية ، والنواميس التعاملية ، قد وضعها بعد النبى الفقهاء والخلفاء والامراء ، فلم يحط الاسلام فى بدء نشأته بكل ما يلزم البشر ، من القوانين والاحكام . فنقول : ان جميع ما وضعه الفقهاء والخلفاء والامراء من الاحكام ، انما بنوه على ما أباح لهم الشرع الشريف ، من الاجتهاد والقياس كما قدروه واعتبروه بالاحكام العامة ، التى قررها لهم الشرع ، على ما سنأتى على تفصيله قريبا ، فكل ما جاء

مبنيا على قواعد الدين ، فهو دين ، سواء نص عليه الشارع نفسه ، أو استنبطه أهل الفكر والنظر الصحيح ، وهذا هو كون الدين الاسلامى دين الابد وختام الاديان . ولنأت لك الآن بشيء من أصول الاسلام لترى منها وجه ما قلناه لك آنفا فتتدبره ، فان للدين ، كما سترى ، قواعد أصلية ثابتة ، تقدر بهـــا الاحكام ، حسبما تقتضيه الاحوال المختلفة ، فى الازمان المختلفة ، بين الامم المختلفة .

أصول الاسلام

١ ــ الاصل الاول : الاجتهاد ، وأعنى به أن تستنبط الاحكام من الكتاب الكريم ، والسنة الصحيحة ، حسبما تصل اليه الافهام السليمة ، فكل من يعرف لغة القــرآن ، لا ينبغى له بحال ما أن يقلد غيره تقليدا متى قدر على فهمه ، وفهم الكتب الصحاح فى السنة ، فلم ينسد ، ولن ينسد ، باب الاجتهاد ، برغم أنف من أرادوا أن يحجروا على العقول البشرية ، ويقيموا عليها أوصياء من الاولين ، حتى تسير كما ساروا ، وتقول بما قــالوا ، فان السلف الصالح رضى الله عنه ، ما كان مقلدا ولكن تصدى لكتاب الله ، فعمل بما وصل اليه ادراكه ، وبلغه جهده ، ولو كان بعض ذلك خطأ فى الواقع ، فان الله لم يحرم من الاجر أى مجتهد . نعم انه جعل لمن اجتهد فأخطأ أجرا واحدا ، ولمن اجتهد فأصاب أجرين . ان أمر انسداد باب الاجتهاد أمر ابتدع بعد انقراض الصـــدر الاول منه لاسباب منها : انتشار العجمة فى المسلمين ، وعدم استطاعة كثير منهم ــ وكانوا لايحسنون العربية ــ أن يفهموا القرآن على وجهه ،

ومن الاسباب أيضا فيما اظن ، جهل كثير ممن قالوا بعدم جواز الاجتهاد للقرآن الكريم ، وعدم معرفتهم أحكامه ولغته ، والا فكيف عموا عن قوله تعالى : « ولقد يسرنا ـ سهلنا ـ القرآن للذكر ـ للتذكر ـ فهل من مدكر » أى فهل من طالب علم سنه ، رمتفهم له فيعان عليه ، أم كيف غفلوا عما قبح الله به القدماء من المشركين وندد عليهم اذ قلدوا آباءهم ، وقصروا أنفسهم على محاكاتهم فيما اعتقدوا ، وفيما عملوا حيث قال : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » ، واذا شئت ان تستقصى ما ورد عن الله من تسفيه أحلام المقلدين ، والتشهير بهم ، فعليك بقراءة القرآن الكريم ، فستجد منه ما فيه مقنع . وما يتذكر الا أولو الالباب .

٢ ـ الاصل الثانى : القصد فى الاعمال ، واقامة ما لا يشق على النفوس من التكاليف ، فلقد طالما نص القرآن الكريم على أن الله لا يكلف نفسا الا وسعها ، فكل ما ليس فى وسع الانسان أن يقوم به ، فلا تكليف فيه . والمراد بالوسع أن يكون العمل بحيث لا يجهد فاعله ، ولا يوقعه فى العناء والتعب ، فان هذا هو ما يفهم من التعبير ، بكلمة وسع التى معناها السعة . وعدم الضيق . ولقد نهانا الله تعالى عن الغلو فى الدين ، فقد ورد فى البخارى : « لن يشاد الدين أحد الا غلبه » وورد فيه أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيئا من الدجلة والقصد » ومن هنا

لا ينبغى لمسلم أن يتغالى فى دينه ، وأن يتباعد عن المباحات ، وأن يحمل نفسه فوق طاقتها ، فان هذا ليس من الدين في شيء . واعلم أن المتغالين فى دينهم ،أقرب الناس الى العجز عن القيام به ، واحتمال تكاليفه ، ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أحب الاعمال الى الله أدومها وان قل » وقال : « ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » وقال تعالى : « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » وقال أيضا : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . ومما يناسب هذا الموضوع ، نازلة كانت موضوع بحث أهل العلم ، ومنتحليه فى مصر ، وذلك لبس القبعة فلقد هاج وماج بعض مدعى العلم من قال بحل لبسها للمسلم . فسلهم بأبيك كيف لهم أن يتقولوا على الله وينسبوا ذلك لدينه . ان القبعة ليست لباسا دينيا وانما هى لباس أمم مختلفة الملل والنحل ، فمنهم النصرانى ، ومنهم المجوسى ، ومنهم اليهودى ، ومنهم العربى المسلم ، بسكن بعض الجهات الحارة من صحراء أفريقية وغيرها . نعم انها تختلف أشكالها وصورها ، ولكنها ذات اسم واحد ، تندرج تحت نوع واحد .

فان كان شبهة اولئك القوم أنها لم تكن معروفة للنبى صلى الله عليه وسلم ولا لسلفه الصالح ، قلنا ان هذا لا يقتضى التحريم ، فهل رأى النبى صلى الله عليه وسلم العمائم التى فوق رؤوسنا او القفاطين التى تتدلى أكمامها ، او الجبب (الفرجيات) .

فليفقه أولئك القوم أنهم يقفون ما ليس لهم به علم ، والله تعالى يقول : « ولا تقف ما ليس لك به علم » ، ان الطيالسة التى استعملها العلماء فى خلافة العباسيين انما حاكوا فيها رهبان اليهود وأحبارهم ، كما ان هذه الجبب الواسعة المستعملة فى مصر ، انما حاكوا فيها علماء وبطارقة بعض المذاهب النصرانية .

واعلم ان من موضوع هذا الباب ، تحرج بعض شبيبة المسلمين ، أن يؤدوا ما فرضه الله عليهم من الصلاة حتى اذا سألتهم فى ذلك، قالوا : اننا لا يمكننا التحــــرز من النجس ، لا سيما قطرات البول ، وكثيرا ما يقضى الانسان حاجته ، فلا يجد من الماء ما يتطهر به . ومنهم من يقول : ان من المشقة أن أخلع نعلى ، وألبسهما عند كل صلاة ، ولا يمكننى أن أصلى بهما حسبما يفتينا علماء المسلمين ، لأنه يغلب على الظن عدم سلامتهما من النجاسة ، التى تكون عادة فى الطرقات . فترى أولئك الفتية يتركون الفريضة التى هى سمة المسلم ومذكرته بالحق تعالى ، وناهيته عن الفحشاء والمنكر ، انصياعا لما أفتاهم به أولئك الجهلة المتغالون والدعاة المعطلون .

فمن لى أن يرى أحداث المسلمين ما رواه البيهقى مرفوعا « اذا جاء أحدكم المسجد ، فليقلب نعليه ، فلينظر أفيهما خبث ، فان وجد فيهما خبثا فليمسحهما بالارض ثم ليصل فيهما » وما رواه البيهقى أيضا عن أم سلمة : « انها سئلت عن المرأة تطيــل ذيلها وتمشى فى المــكان القذر ، فقالت أم سلمة : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم يطهره ما بعده » وفى رواية له عن أبى هريرة رضى الله عنه : قلنا يا رسول الله انا نريد المسجد فنطأ الطريق النجسة ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام : « الطرق يطهر بعضها بعضا » وفى حديث البيهقى مرفوعا : « اذا وطىء أحدكم بنعليه فى الاذى فان التراب له طهور » وقد رأى المالكية أن المعتمد فى مذهبهم ان ازالة النجاسة سنة اعنى أنها لا تبطل الصلاة بوجـــودها وان كانت مكروهة معها. فلم لا يصلى ذلك المسلم فى نعليه؟ولم لايصلى وفى سراويله قطرات البول ، ولم لا يسهل عليه التحرز منها ، ولم لا يصلى المسلم فى بلاد لم يستطع أن يستنجى فيها ، ايظنون ان الله يريد بهم العسر مع ان الله يقول فى قرآنه : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

٣ ـ الاصل الثالث : من أصـــول الاسلام انه لا ضرر ولا ضرار ، فلا يجوز لمسلم أن يفعل ما فيه ضرر لجسمه أو عرضه أو ماله ، كما لا يجوز له أن يضار غيره ، فيدخل فى ذلك تكليف الجسم بما لا يطيق ، وشرب المســكر ، والمقامرة ، وايذاء الغير بأى نوع من ضروب الاذى حسبما تعارفه القوم الذين يعيش فيهم ، كقتل النفس،والسرقة، والرشوة ، والخداع ، والتمويه ، والتدليس ، وشهادة الزور .. وهلم جرا .

لعلك أطلعت على ما قرره الفقهاء من اباحة التخلف عن الجمعة لأسباب كثيرة . منها أن يكون بالانسان بخر ، أو رائحة ثوم أو بصل ، أو به مرض معد كالجذام والبرص ونحوهما من كل ما يضر ، أو تشمئز منه نفوس المصلين ،

ولا يخفى أن هذا الاصل ينبني عليـــــه كثير من الاحكام الفرعية ، والنوازل اليومية فى كل عصر .

٤ ـ الاصل الرابع : سد الذرائع واعطاء الوســـائل احكام المقاصد والغايات ، فكل ما أفضى الى مباح فهو مباح ، وكل ما وصل بك الى مكروه فهـــو مكروه وكل ما أوقعك فى محرم فهو محرم ، فكلما اردت أن تحكم على وسيلة بحكم فقدرها بمعيار غايتها . ولنضرب لك مثـلا ما جاء به الشرع من اباحة تعـدد الزوجات ، فان هـــذه الاباحة قد قيدها الشرع بقيود منها : العدل ، ومنها : أن لا يفضى التزوج الى ضرر أو محرم أو فســـاد ، فاذا قسنا ذلك بما يحصل عادة على أثر التعدد من الشقاق ، وافساد ذات البين واغفــال الرجل امر أولاد احـدى الزوجات ارضاء لغيرها ، أو قسوته عليهم ، وايذائه لهم ، واذا قدرنا تلك الوسيلة وهى تعـــدد الزوجات بما تفضى اليه من المضار ، فيمكن الحكم بأنه لا يباح للرجـل تزوج غير واحدة .

٥ ـ الاصل الخامس : من اصول الدين الحنيف اعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به ، فاذا غلب على الظن أن العمل مفض الى محرم أو مكروه فانه يعطى حكم غايته، فيحرم أو يكره ، فلا يعترض علينا هنا بأن أمر المضارة مع تعدد الزوجات ليس بالامر المحقق ، حتى ينبنى عليه تحريم ذلك على الرجال ، فاننا على تسليم أنه غير محقق جدلا ، لا يسعنا أن ننكر أنه أمر غالب على الظن حتى يوشك أن يكون يقينا .

٦ ــ الاصل السادس : من أصول الاسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض . وأولى بى هنا أن أقتطف ما جاء لأستاذنا الحكيم الشيخ محمد عبده فى مقالات الاسلام والنصرانية اذ قال ما نصه :

اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ننظر اليه ، على انه اذا تعارض العقل والنقل ، أخذ بما يدل عليه العقل ، وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول ، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الامر الى الله فى فهمه . والطريقة الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة ، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل ، وبهذا الاصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى صلى الله عليه وسلم ، كل ذلك مهد بين يدى العقل السبيل ، وأزيل من أمامه جميع العقبات ، واتسع له المجال الى غير حد . فماذا عسى يبلغ اليه نظر الفيلسوف حتى يذهب الى ما هو أبعد من هذا ، وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم ، اذا لم يسعهم هذا الفضاء ، ان لم يكن فى هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ، ولا سماء بأجرامها وأبعادها » .

ولا يخفى أن تقرير هذا الاصل فى الاسلام ، يدلك دلالة واضحة على أن الدين المحمدى لم يلزم العقل أن يخالف ما يقتضيه نظره وبحثه ، بل إنه فوق ذلك قدمه فى العمل والاعتقاد على ظاهر المنقول .

٧ ــ الأصل السابع : وجوب امتثال ما قاله النبى صلى

الله عليه وسلم شرعا دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأى .

وقد تقدم لنا بيان ان وظيفة الرسل ارشاد العالم الى طريق النجاح والاستقامة ، واقامة العدل فيهم ، وتربيتهم على الاخلاق الفاضلة والشيم الكريمة . وبينا أيضا أن الاسلام يقدم العمل بمقتضى العقل على ظاهر الشرع عند التعارض . وقد علمنا النبى صلى الله عليه وسلم أن نمتثل كل ما جاء به عن الله وانه لا يجب الاخذ بما ورد عنه فى امور الدنيا ، ولنأتك بشيء مما ورد فى ذلك :

(روى) مسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال : مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم على رؤوس النخل فقال ما يصنع هؤلاء ؟ فقالوا : يلقحون ، يجعلون الذكر فى الأنثى فتلقح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما اظن يغنى ذلك شيئا . قالوا : فأخبروا بذلك ، فتركوه ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فانى انما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فانى لن أكذب على الله عز وجل .

وروى مسلم أيضا عن رافع بن خديج قال : قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يأبرون النخل ، فقال : ما تصنعون ؟ قالوا : كنا نلقحه . قال : لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا . فتركوه فنقصت ، قال فذكروا ذلك له ، فقال: انما انا بشر اذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به واذا أمرتكم بشيء من رأيى فانما انا بشر .

وروى ايضا عن أنس ان النبى صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون ، فقال : لو لم تفعلوا لصلح · قال فخرج شيصا ، فمر بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا ، قال : أنتم أعلم بأمور دنياكم .

كأنى بك ترى ما حكم به النبى صلى الله عليه وسلم على نفسه ، وهو سيد المنصفين ، صرح لك الرسول بأنه انما هو بشر ، وأن أهل كل حرفة أو صناعة أدرى بمسائلها وبخفاياها من غيرهم ، وان عصمة الرسل انما تجب فيما اذا بلغوا عن الله شيئا من شرائعه ونواميسه . ومن هنا نعلم أنه لا يجب الاخذ بما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم من أمور الدنيا وأحوالها وحرفها وطبعها وصنائعها لأن هذا ليس مما يوحى به اليه من الشرائع .

٨ ـ الاصل الثامن : المساواة بين المسلمين فى الاحكام وكذا بينهم وبين جميع من لهم ذمة وعهد ، فان لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، فلا يفضل أحد أحدا فى اعتبار الشرع الا بالتقوى والعمل الصالح «ان أكرمكم عند الله أتقاكم» فقد جعل الله الغنى والفقير ، والمأمور ، والامير ، والعزيز والحقير ، سواء فى أحكامه ، سواء فى ذلك الاحكام الدنيوية والاخروية ، واعتبر ذلك بصيغ العموم، التى تراها فى غير موضع من القرآن الكريم نحو قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . ومن الغريب ان الفقهاء الذين يدعون فهم كلام الله ، ويظهرون للعالم بسبحهم وسواد موضع السجود من جباهم ، طالما حابوا الملوك والامراء وتأولوا كتاب الله بما يوافق أغراضهم حرصا

منهم على استرضـــــاء من لا يضرون ولا ينفعـون .
راضين بما سخط الله عليهم ، اذ فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، فشحنوا كتبهم بما تضارب من الاقوال ، وخالفوا أمر القرآن كما فى قوله : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات » وقال تعالى : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » وقال تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » واذا أردت أن تأتى على ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الاتفاق وعدم الفشل والاختلاف فعليك بكتب السنة الصحيحة .

٩ ـ الاصل التاسع : أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، ففى سورة الطور : « كل امرىء بما كسب رهين » وفى سورة المدثر : « كل نفس بما كسبت رهينة » وقال تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وفى سورة النجم : « ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للانســـــان الا ما سعى وأن سعيهسوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى» .

ولا يقـــال أن من أحكام الشريعة ما لا يقتصر على الجانى كما فى دية القتيل فانها على عائلة القاتل ، وكمـا يؤخذ من قوله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » لأنا نقول فى امر الدية انما ألزمت بها العائلة في الشعوب التي لها عصبية قائمة ووحدة وعهد بحيث انهم يكونون يدا واحدة على من سواهم .
فاذا أصاب أحدهم شىء تعاهد الباقى على الاخذ بثأره او المطالبة بديته ، كما هو الشأن بين البدو وكثير من

العرب حتى الآن ، ولذلك نجد الفقهاء ينصـــــون على انه لا عاقلة فى الامم التى لا تتضامن قبائلهـــــا كالفرس والفرنجة والمصريين وغيرهم من الامم التى لا أثر فيها لتلك اللحمة التى تجعل الحى او البطن أو القبيلة كأنها رجل واحد فأخذهم الشرع كما أخذ لهم وانتقم منهم كما انتقم لهم . وهذا من الوجوه التى تبين لك كيف جاء الاسلام مطابقا للأحوال البشرية ، ملائمـــــا لها على اختلافها .

١٠ ــ الاصل العاشر ان جميع الزواجر تقدر حسبما يراه الامام أو من ينصبه من القضاة للفصل بين الناس طبقا لما يقتضيه العرف العام كما أن من أصوله جواز التحكيم .

واعلم أن الشرع الشريف قد حدد بعض العقوبات كجزاء القتل والسرقة ونحوهما وهى قليلة جدا بالنسبة لما ترك الشارع أمر تحديده الى الحكام ونوابهم ، فقد أجمع الائمة على أن التعزير مشروع فى كل جناية لا حد فيها ولا كفارة ، وجوز الامام مالك للامام الحاكم أن يبلغ بالتعزير أعلى درجات الحدود المقدرة .

أما التحكيم فقد أجازه الشـــارع فى الاصــول المالية وذلك أن يحكم رجلان بينهما خلاف رجلا من أهل النظر والرأى فيما شجر بينهما ، وقد ذهب بعضهم الى اعتبار قول الحكم أمرا مقضيا لا يتوقف فى تقريره وثبوته على أن يقرره قاض شرعى ولا أمير ولا حاكم .

١١ ــ الاصل الحادى عشر : تقدير كثير من الاحكام

بما تعورف بين الناس . ولا يخفى ان هذا الاصل قد وسع دائرة الاحكام الشرعية حتى وسعت تقريبا جميع النوازل على تغاير أشكالها وتباين أحوال أربابها ، فمن ذلك أمر النفقات الزوجية فانه يراعى فى تقديرها عند الحكم بتقريرها حالة الزوجين ، فرب نفقة تلائم زوجة على أنها لا تلائم أخرى ، وقد كثر التعبير بكلمتى « المعروف » و « العرف » فى القرآن العزيز ، وعلق عليهما تقرير كثير من الاحكام ، ومن البديهى أنه لا معنى للمعروف والعرف الا ما كان متعارفا مألوفاغيرمستنكر، كما أن المنكر هو ما لا يجرى به عرف وألفة من الآيات المحتوية عليهما قوله تعالى : « طاعة وقول معروف » وقوله : « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » وقوله : « الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس » وقوله : وعاشروهن بالمعروف » وقوله تعالى : « فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » وقوله : « وأتمروا بينكم بمعروف » وقوله : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » وقوله : « وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » وقوله فى شأن الاوصياء : « ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف » فترى فى هذه الآيات ، وفى كثير غيرها ، ان الله تعالى فوض أمر تقدير كثير من المعاملات ، الى ما جرى به العرف والعادة من غير تقييد بأهل مكة أو أهل المدينة أو غيرهما ، بل أطلق الامر اطلاقا ، ولا ريب ان العرف

يختلف باختلاف أهله وطبقاتهم وما اعتادوه بينهم حسبما يقتضيه الزمان والمكان ، واذن كان من القصور تعرض بعض الفقهاء الى تحديد مثل متعة المطلقة أو نفقة الزوجة ، وتقدير كثير من الاحكام بما جرى عليه عرف أهل المدينة المنورة محتجين بعلمهم وأنهم أعلم الناس بما مات عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، كما أن من جمود القريحة وقصور النظر تفسير هذه الكلمات بغير ما يتبادر منها ، فان هذا تخريج للكتاب العربى المبين على غير ما أريد منه . ومما يناسب هذا المقام أن القرآن قد أتى بألفاظ أخرى عامة لتكون صالحة للحمل على ما يناسبها من النوازل والاحوال . فمن ذلك كلمات « الصالحين » و « الصالحات » و « صالحا » فى كثير من الآيات ، فان المراد من مادة الصلاح هنا ما ليس سيئا ، كما يؤخذ من قوله تعالى : « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا » فان هذه الآية ناطقة بأن كل عمل سيىء فهو غير صالح وان كل سيىء فهو غير صالح وأنه لا صلاح فى سوء ، فيدخل فى ذلك الملك الجائر ، والحاكم الذى أغفل أمر دولته حتى تمكن الضعف منها وجرى الفساد فى عروقها وتمشى الخلل فى أطرافها حتى أصبحت لا تزداد الا نقصا ولا تعظم الا فسادا ، فلا جرم أن مثل هذا الحاكم لا شائبة صلاح فيه ، ولو قطع الليل تسبيحا وقرآنا . ومن هنا فسر أستاذنا قوله تعالى : « أن الارض يرثها عبادى الصالحون » بأن المراد الصالحون لعمارتها بأن امتثلوا أمر الله فأعدوا لانفسهم

ما استطاعوا من القـوة وأحسنوا الى أنفسهم فكاتفوا الامم فى الاخذ بوســائل القوة والمجد فلم يلتمسوا المسببات الا من أســبابها ، ولم يأتوا البيوت الا من ابوابها .

التوكل غير التقاعد

ومما ينخرط فى هذا الباب خطأ كثير من المسلمين فى فهم التوكل الذى حض عليه القرآن غير مرة اذ قالوا ان التوكل هو تفويض الآمر الى القـادر المدبر سبحانه وتعالى وترك الاسباب المألوفة ، ثم ان منهم من اكتفى بعد ذلك بالبلغة من العيش الخشن ولم يستزد حتى مات . ومنهم من اتخذ من أسماء الله مصادر للرزق فظن أن من يذكر اسم الوهاب كذا كذا مرة وهبه الله من المال ما يزيد على حاجته ، ومن قرأ : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه »كفاه الله مؤونة السعى لطلب الرزق من معاهده العـادية . ولقـد كثر هؤلاء فى المسلمين فكثرت بهم المفاسد وانحطت بسببهم الهمم وازال الله عنهم كثيرا من النعم وان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

نددت الأمم الغربية وكثير من الشرقيين بالاســلام والمسلمين ، لما نزل بهم من الضعف ، وانحلال العقـدة والفشل ، وزعموا أن منشأ ذلك هو أصـــول الدين الاسلامى ، محتجين بأعمال اولئك الطوائف من المسلمين ، وبما كذبوا على الله فى تأويل آياته الكريمة نحو : « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ونحو : « انى توكلت على الله

ربى وربكم » ونحو : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » ونحو ما ورد فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » .

اننى لا يسعنى هنا أن أفند جميع ما قيل فى هذا المقام لضيقه ، ولكن حسبى أن انبهك الى ان الاستدلال على فساد هذا الدين بما أصاب أهله حجة داحضة ، وبرهان واهن ، فان نظرة قليلة فيما مضى من تاريخ المسلمين يوم كانوا متوكلين على الله تعالى تلجم هؤلاء المتقولين على الاسلام وتلزمهم الحجة بأن ما طرأ على المسلمين بعد ، لم يصبهم الا بعد أن تركوا التوكل على الله فلم يعملوا بما أرشدهم اليه من وجوب الاخذ بالاسباب العادية ، فانه سبحانه وتعالى خلق الاسباب والمسببات ، وخلق ما بينهما من لحمة السببية . فالتماس تلك الاسباب لا ينافى التوكل فى شىء ، بل انه نفس التوكل ، وما تفسير أولئك الناس للتوكل بالتفويض المطلق ، والتقاعد عن الكسب والتحصيل ، مما أفضى بهم الى الاضمحلال ، انما منشؤه الجهل بلغة القرآن الكريم .

ذلك الرسول وهو سيد المتوكلين يرشدنا بقرآنه ، وبجميع أعماله الى أن لكل شىء سببا لا يمكن الحصول عليه الا باتخاذ ذلك السبب . أو ما سمعت قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » وقوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو

الله وعدوكم » ونحو : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » الى غير ذلك من الآيات .

على انك لو تأملت قليلا فى قوله صلى الله عليه وسلم: لرزقكم كما يرزق الطير .. الحديث ، لتجلى لك الامر واضحا لا لبس فيه ، فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يقل – لرزقكم كما يرزق الطير تمكث فى أوكارها والله يرسل اليها اغذيتها – بل قال : تغدو خماصا وتروح بطانا .

وفى صحيح البخارى عن على رضى الله تعالى عنه قال كنا جلوسا مع النبى صلى الله عليه وسلم ومعه عود ينكت به الارض وقال : ما منكم من أحد الا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة . فقال رجل من القوم : الا نتكل على كتابنا وندع العمل يا رسول الله ! قال : لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له . ثم قرأ : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » .

على أن الله سبحانه وتعالى بين لنـــا ضرورة علاقة المسببات بأسبابها صراحة ، وأنها من الامور الفطرية التى فطرت الممكنات عليها . فقال فى الكتاب العزيز : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا (أي أكثرنا) مترفيها ففســـقوا فيها فحق عليهـا القول فدمرناها تدميرا » فليتق الله المسلمون فى دينهم ، وليتباعدوا به عن النقائص التى شوهوه بها ، وعرضوه بسببها الى طعن الطاعنين وغلو الآفكين .

والخلاصة ان الدين الاسلامى ، لما احتوى عليه من تلك القواعد الكلية والاصول العامة وأشباهها ، جاء صالحا لأن يبتغى بواسطته كل خير فى كل زمان ومكان . ومن هنا يتضح لك جليا وجه كون الرسول عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين ، وان شرعه خاتم الشرائع الالهية ، كما أنه لم يخالف فى شيء من أصوله وقواعده سنن الله الفطرية التى فطر العالم عليها ، ولذلك لا حرج علينا فى تسميته « دين الفطرة » .

صفات المؤمنين

وبعد فاعلم ان هناك بعض أحكام جاء بها الشرع فكانت مطعن الجاهلين من الامم ، قصار النظر ، فرأينا أن نأتى عليها هنا تتميما للفرض الذى وضعنا له هذه العجالة ، الا اننا نريد قبل ذلك أن نأتيك بما ورد فى القرآن الكريم من صفات المؤمنين ، وما يجب أن يكونوا عليه ، وأكل اليك بعد ذلك الحكم فى اعتبار مؤمنى هذا الزمان، والله يوفقك الى سبيل الرشاد :

١ — قال تعالى فى سورة المائدة خطابا للمؤمنين : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ، واتقوا الله » أى لا يحملنكم بغض قوم صدوكم عن الدخول فى المسجد الحرام ، على أن تعتدوا عليهم ، بل يجب عليكم العدل ، كما يجب عليكم أن

تتعاونوا على الاحسان واتقاء ما يسخط الله من مخالفة اوامره . وفى معنى ذلك قوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى » فان الله يأمرنا هنا أن لا نطيع ما تكنه صدورنا من بغض احد على الاعتداء عليه ،بل يجب أن يوفى كل ذى حق حقه، وأن تقدر المعاملة بمعيار العدل ، فانه أقرب للتقوى .

٢ ــ وجاء فى سورة النور « ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون . وأن يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين . أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون . انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون » . نزلت هذه الآية فى قوم ادعوا انهم مؤمنون مذعنون لقضاء الله وأحكامه ، حتى اذا دعوا الى شريعته لتفصل بينهم ألقى الشيطان فى ضمائرهم أنهم ربما ظلموا فأخذتهم العزة بالاثم ، فأعرضوا عن احكام الله وهم ظالمون ، ولكن اذا كان لهم الحق جاءوا الى المحاكم سراعا مذعنين ، وقد بين الله تعالى هنا ان تلك ليست من صفات المؤمنين فى شىء ، وما كان للمؤمنين الا أن يسمعوا ويطيعوا وينصاعوا الى قضاء الله وأحكامه سواء أكانوا ظالمين أم مظلومين .

٣ ـ وجاء فى افتتاح سورة (المؤمنون) : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظـــون » ، الى أن قال : « والذين هم لأماناتهم وعهـــدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون » فليت شعرى كيف يكون مؤمنى هذا الزمان أن يتبجحوا بأنهم فى اعتبار الشرع مؤمنون . مع ان الله تعالى لم يصف المؤمنين بأنهم الذين عن صلاتهم لاهون، والذين هم على اللغو مقبـــلون ،والـــذين هم للزكاة مانعون ، والذين هم لشهواتهم مرضون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم خائنون .

٤ ـ وجاء فى سورة الانفال : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا » الى أن قال : «أولئك هم المؤمنون حقا » .

٥ ـ وفى سورة الحجرات : « قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » الى أن قال : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » فانظر كيف وصف المؤمنين بما وصف ، وانظر الى استعمال الحصر هنا فى قوله « انما » ثم تأكيده ذلك بقـــوله « أولئك هم الصادقون » .

٦ ـ وجاء فى سورة الممتحنة : « يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا

ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن » يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن ليس الايمان مجرد النطق بالشهادة والمبايعة على أن محمدا رسول الله ، فان هذا لا يكفى ، ولقد بين الله فى هذه الآية البيعة التى يكون بها المؤمن مؤمنا ، فتدبرها حتى تعلم مبلغ ايمان الذين قالوا آمنا بأفواههم ، ولم تؤمن قلوبهم . فبأبيك أيها المؤمن أتجد فيما وصف الله به المؤمنين: اتخاذ المسابح ، واطالة اللحى ، واختضاب الشعر ، وتحديب الظهر ، وملازمة الزوايا ؟ ألا أن الويل كل الويل لمن حرفوا الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به .

الخلاصة : ان من آثار الايمان القلبى الصادق اقامة ما وقع الايمان به ، وملازمة حدوده ، ومخالفة وساوس الصدور ، فمتى رأيت من ينقاد الى شيطانه ، ويتكل على غير ربه ويحارب شريعته ، فاعلم أنه غير مؤمن . أو ما رأيت ما قاله تعالى فى قرآنه الكريم : « انه ــ أى الشيطان ــ ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » فكل من وجدت للشيطان سبيلا عليه فاعلم انه غير مؤمن . أفيحسب أولئك الضالون أنهم على شىء، وقد جاء فى البخارى عن سفيان بن عيينة قال : ما فى القرآن أشد على من قوله تعالى : « يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم » ــ أى القرآن ــ ومعنى اقامة هذه الكتب امتثال جميع ما فيها ، والاتيان به على وجهه ، فان جاء

العمل دون ذلك ، فانه لا يسمى اقامة ، لما حوته تلك الكتب الشريفة من الاحكام ، فكيف لاحد بعد ذلك أن يدعى انه على شيء من الايمان بالله وكتبه ورسله حتى يمتثل ما فيها .

ومن هنا يتضح ان الايمان الصادق يستدعى الانقياد والعمل ، وهذا والله أعلم سر ما رواه البخارى فى صحيحه من قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » .

قال القسطلانى : الايمان هو التصديق بالقلب ، والاعتراف باللسان ـ وتقرره الاعمال الصالحة ـ واجتناب المناهى ، فاذا زنى ، أو شرب الخمر ، أو سرق ، ذهب نوره وبقى فى الظلمة فان تاب رجع اليه .. ا هـ . ومثال ذلك فى الكتاب الكريم والسنة كثير ، ولكنها لا تعمى الابصار .

هذا والمستقرىء لعبارات القرآن الكريم ، قلما يجد فعلا أو وصفا مشتقا من الايمان الا وهو مشفوع بعمل الصالحات ، فمن ذلك قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » وقوله : « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا » وهلم جرا . يريد الله بذلك وهو أعلم أن يوقظ العقول الى أن مجرد معنى الايمان فى اللغة ، أى الاعتقاد ، لا يكفى فى الحاق صاحبه بفئة المؤمنين حتى يقرن اعتقاده بصالح الاعمال . وقد ضمن الله تعالى الامن والهداية لمن لم يشب ايمانه بظلم ولا جور ، فقال :

« الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

الرق فى الاسلام

كانت القوانين فى الازمان السالفة من الاوضاع البشرية ، فكان الفرد أو الافراد يسنون ما شاءوا من النواميس التى لم يراعوا فيها عدلا ولا نصفة ولا مساواة ببين أفراد الانسان فيما لهم وما عليهم .

كان محض ارادة القوى وسلطانه هو القانون والسنن التى يسار على مقتضاها ، فكان عدم تساوى الافراد فى القوى الجسمية والعقلية ، الذى اقتضته سنة الكائنات الحية ، هو منشأ تسخير القوى للضعيف ، وغلبته عليه ، حتى أفضى ذلك بعد الى وجود ناموس عادى اقتضى أن يكون ثمة مالك ومملوك ، وقاهر ومقهور .

ان استخدام شخص لآخر ، واستمتاعه بقواه الجسمية بلا أجر ، هو ولا ريب أساس الاسترقاق الذى نشأ مع نشأة الانسان ، فان من استقرأ التاريخ وجد انه لا يكاد يخلو عصر من العصور من وجوده فى أهله ، وجدت اجرامه فى كل جاهلية ، ثم تعدتها الى ما كان معها من الامم المتحضرة ، وبقيت فيها حتى بعد انقضاء الحاجة اليه وزوالها أصلا ، فلقد عرف الاسترقاق عند اليهود واليونان والرومانيين ، كما عرف بين قدماء الالمان ولقد أفرط الاخيرون فى استخدام الرقيق حتى ضرب بهم المثل فى ذلك .

ولقد وجد عند اليهود منذ نشأتهم نوعان للاسترقاق: احدهمـــا استرقاق بعض أفراد منهم لسبب ارتكابه خطيئة من الخطايا المحظورة شرعا أو فى دين عليه ، وكان لهذا الرقيق أن يتحرر بعد مضي ست سنوات عليه فى خدمة من هو فى ملكه الا أنه فضل البقاء رقيقا . والنوع الآخر : استرقاق غير اليهـــود ممن قضى عليهم أن يصيبهم شيء من عسف اليهـود وحروبهم التى كانوا يقيمونها بلا مسوغ سوى الشره على السيادة وارضاء نفوسهم الخبيثة بما شاءت من الظلم ، فكانوا يبيعونهم كما يباع المتاع ، ويعاملونهم أقبح من معاملة الحيـوانات العجم ، سواء فى ذلك العبيد المستخدمة فى المنازل ، وعبيد الحقول والمزارع ، فانهم كانوا يقضون حياتهم مبغضين ، مهينين ، معزولين ، محقرين ، مسخرين ، ثم جاء المسيح عليه السلام ، فلم يمنع الاسترقاق ، ولم يضع حدودا تراعى ولا وسيلة تؤدى يوما الى نسخه أو تقليله ، نعم انه جاء ببعض كلمات تتعلق بعدم طاعة الرقيق، وببعض نصائح للسادة ، ليمكنوا الرقيق من تلقى ما جاء به المسيح عليه السلام من قواعد دينية ، على أن كثيرا من الامم المسيحية كانوا أشره الناس على اتخاذ الرقيق ، وأقساهم فى معاملته .

وانتشر الاسترقاق بين الرومان ، منذ نشأتهم الاولى، من غير تفريق بين من كان رومانيا أو أجنبيا ، فكانوا يملكونهم اما بحرب أو شراء أو اختطاف ، فلقد كانوا يعتبرونهم متاعا ، وتغالوا فى السيطرة عليهم ، فكان

للسيد أن يتصرف فى عبده حتى كان له أن يقتله ، نعم، انه قد هذب هذا القانون بعد ، حتى خفف فى الجملة عن الارقاء أعباء ما كانوا يحتملون ، ولكنهم مع ذلك كانوا تحت سلطة سادتهم المطلقـــة ، وكان الأمراء الرومان وأشرافهم الالوف من الارقاء ، يستخدمونهم فيمـــا شاءوا ، ويوقعون بهم من الآلام ما شاءوا غير مسئولين عما فعلوا .

ان دخول الدين المســـيحى فى أوربا لم يقـلل من الاسترقاق الا من جهة واحدة ، ذلك أن الرقيق كان يصير حرا بالرهبانية ، وانقطاعه الى خدمة الدين ، على شرط أن لا يظهر له سيد يدعيـه فى خلال ثلاث سنوات ، أما من الجهات الاخرى فان الاسترقاق بين مسيحيى أوربا لم يكن بأخف بطشا ولا أسلم عاقبة مما كان بين الوثنيين والمجوس ، ولقد جاء فى جملة قوانينهم المدنية أن الاسترقاق من الامور الطبيعية ، كما انهـا قدرت أثمان العبيد ، واعتبرت فى تقديرها ما يحسنه الرقيق من المهن والاعمال ، ومنها عدم اباحة التزاوج بين الارقاء ، ولا بينهم وبين الاحرار ، وقد قدر القـــانون أشد العقـوبات صرامة فيمـا اذا تزوج الرقيق حرة ، فقضى على الحرة المتزوجة بالعبد بالقتل ، وقضى على الزوج أن يحرق حيا . كان ذلك حال الاسترقاق فى أوربا فى القرن الثالث عشر للمسيح عليه السلام .

فلما تقوضت أركان المملكة الرومانية ، وأسست على انقضاضها المملكتان الشرقية والغـربية ، لم يقف امر

الاسترقاق عند الحد الذى كان مألوفا عند سلفهم ، بل كان لاشراف الأمتين وأمرائهما القول الفصل ، والرأى الاعلى والكلمة النافذة فى الفلاحين الذين تحت أيديهم ، فكانوا ملاكهم وحماتهم وسادتهم وحكامهم . فلم يكن فى ذلك الوقت من هو أرقى منهم حكمة وأعلى سلطانا سوى نفس الحكومة التى قلما وضعت بين المالك والمملوك شيئا من الحدود .

على ان الكنائس فى أوربا قد اتخذت الارقاء ، وأباحت لغيرها اتخاذهم ، كما أن كثيرا من الناس كانوا يذهبون الي استحسان ذلك ، واعتباره من أحسن الوسائل لمنع الناس من السؤال ، ولقطع دابر السارقين قطاع الطرق . (واعلم) ان أقبح أنواع الاسترقاق ماكان فى أمريكا الشمالية ، ولم يزل فاشيا فيها ، حتى كانت الحروب الدينية ، التى تأججت نارها فى سنة ١٨٦٥ الميلادية .

نحا كثير من الامريكيين نحو ما كان عند الامم السالفة من اليهود والفرس والرومان على ما هم عليه من العلم الفزير ، والتحضر الذى لم يسبقوا اليه ، فكان الامريكى الابيض النصرانى يملك الامة السوداء ، ويولدها البنين على انه مع ذلك لا يعتبرها أم ولده كما فعل الاسلام ، بل كان لابنه الابيض أن يبيعها ويبيع ذريتها الذين هم اخوته من صلب أبيه .

***

وبالجملة يمكن الحكم بأن الدين النصرانى لم يأت بما يعضّ دابر الاسترقاق أو ينافيه ، كما أن الامم

المسيحية ، على اختلافها وتباين مشاربها ، كانت لا تبالى ان تسترق من شاءت ، وأن تستخدم الرقيق كيف شاءت ، وتعامله كما شاءت ، ولم يزالوا كذلك حتى انتشر أمر التعليم فيهم ، فهذب من نفوسهم وأضعف من قسوتهم فتعاهدوا وغيرهم من الامم المتحضرة على حماية نوع الانسان ، والحيلولة بين أفرادهم أن يسيطر بعضهم على بعض الا بقدر ما تقتضيه النواميس الشرعية .

واذ قد فرغنا من بعض المقدمات التمهيدية ، فدونك ما فعل الاسلام فى الرقيق والاسترقاق :

سوى الاسلام بين الامم من غير اعتبار لاختلاف اصنافها وألوانها ، فسوى بين الابيض والاسود ، والبدوى والمتحضر ، والرعاية والمرعيين ، والرجال والنساء ، والمسلمين واليهود والنصارى ، ما داموا فى سلم .

أنظر الى المسلمين وهم فى المسجد يؤدون فريضة الصلاة ، أو فى مكة وهم يحجون البيت الكريم ، أو فى المحاكم الشرعية فى صدر الاسلام ، أفتجد فيهم من مقدم ومؤخر ، أو من فاضل ومفضول ؟ كيف والله تعالى جعل المؤمنين اخوة كما لم يجعل بينهم تفاوتا الا بقدر ما يتفاضلون به من الحق ، فلقد قال عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع :

« أيها الناس ، انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه الا عن طيب نفس ، فلا ترجعن بعدى كفارا

يصرب بعضكم رقاب بعض ، فانى قد تركت فيكم ما لو تمسكتم به ـ كتاب الله وسنتى ـ لن تضلوا بعدى . أيها الناس أن ربكم واحد ، وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى الا بالتقوى » .

أين هذا مما يفعله أهل أمريكا ، وهم فى مقدمة الامم حضارة وعلما ؟ ازدرى البيض منهم السود وامتهنوهم لسواد ألوانهم ، وتجنبوهم وحرموهم كثيرا من المزايا التى استمتع بها البيض ، ولطالما نشرت الجرائد ما يفعلون بهم من الفتك والمقت والتجافى عن مخالطتهم ، حتى لقد خصصوا لهم فى مراكب السكك الحديدية مقاصير خاصة بهم ، لا يجوز لهم أن يتجاوزوها الى غيرها .

زعم كثير من الناس ، ولا سيما من غير المسلمين ، أن الاسلام أباح للناس اختطاف غيرهم من السود أو البيض ، مستدلين على ذلك بما كان يفعله النخاسون من أهل البادية ، وأهل السودان ، وكثير من الاتراك ، وقد تقدم لنا أنه لا ينبغى الاستدلال على صحة الدين أو فساده ، بما يفعل أهله ، فان هذا من العبث الذى ينبغى أن تصان عقول العقلاء عنه .

ان الشرع لا يبيح أن يسترق مسلم أصلا ، ثم انه لا يبيح بعد ذلك الا استرقاق أسرى حرب شرعية ، لم تقم الا لاعلاء كلمة الله تعالى ، مراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم . فمن هنا يؤخذ

ان أسرى الحروب ، التى اقامها كثير من أمراء المسلمين وخلفائهم ، لا لغرض سوى النهب والسلب والبطش ، مع العدوان على الغير ، لا يجوز استرقاقهم بحال ، سواء أكانوا مسلمين أم غيرهم ، كتابيين أو وثنيين أو مجوسا .

أما استرقاق غير المحاربين ، ممن لا كتاب لهم ولا شبهة كتاب ، كعبدة الاوثان ، فقال مالك والشافعى وأحمد فى احدى روايتيه ان ذلك لا يجوز مطلقا . فماذا ترى فيمن يذهبون الى الصحارى ويختطفون من وصلت اليه أيديهم من السودان وغيرهم ، ثم يجلبونهم ، كما يجلبون المتاع ، فيعرضونهم فى الاسواق عرض الحيوانات العجم ، وكثير منهم مسلمون ، وماذا ترى فى كثير من الامراء وشيوخ المسلمين ، يجيئون اليهم ويسومونهم كما يسوم المتاع ، ثم يسوقونهم الى بيوتهم أما للخدمة واما للافتراش ؟ وماذا ترى فى الذرية التى ينتجها افتراش بنى على هذا الاسترقاق الفاسد ؟ ان الدين لبرىء مما جنى عليه أولئك الطغاة الجهلة ، وطاهر مما الصقوه به من ذلك الدنس والرجس ، قد سولت لهم نفوسهم الخبيثة ما شاءت أن تسول ، فافتأتوا على الله ونسبوا اليه ما نسبوا ، متقولين عليه ، وهذا قرآنه الكريم قائم ناطق بتكذيبهم وتأنيبهم .

(واعلم) أن هناك نوعا من الاسترقاق ، فشا فى المسلمين أيضا ، وهو لا يبيحه الشرع أيضا ، ذلك أن بعض أمم آسيا كالقوقاز وغيرهم ، قد يحدو بهم الفقر

المدقع ، الى جلب بناتهم بأيديهم الى أسواق بعض المدن الاسلامية وهن صغار جدا ليبيعوهن الى الامراء والمثرين من الرجال ، ولقد يكون منهن المراهقات والنساء ، حتى اذا صارت احداهن فى ملك أحد استباح منها واتخذها فراشا ، يخادع الله بما عقده من البيعة الفاسدة ، وما يخدع الا نفسه من حيث لا يشعر ، فيظل طول حياته مستبيحا ما حرمه الاسلام ، ويدخل فى دينه ما أملته عليه وساوس الاوهام .

وقد كرم الاسلام الاسرى فشرع ان كل من أسلم من الاسرى عصم نفسه وماله ، وان مجرد دخول العدو المحارب دار الاسلام أمان له من السبى عند مالك والشافعى وأحمد بن حنبل .

وان للرقيق فى الاسلام أن يتزوج بنت سيده ، فيقلب بذلك سيد البيت .

أين هذا مما سبق لنا نقله ، من قوانين أوربا فى القرن الثالث عشر ، من تحريم التزاوج بين الارقاء ، وكذا بينهم وبين الاحرار وانه يجب قتل المرأة التى يتزوجها عبد ، كما يجب احراقه حيا .

وقد وضع الاسلام من الاصول والنواميس ، ما كاد يقضى على الاسترقاق ، لولا ان الامم العربية وغيرها كانت اذ ذاك على ما نعلم فى أمر الاسترقاق ، وبديهى انه لا يمكن أن يزيل النبى عليه الصلاة والسلام فى بضع سنين أمرا ألفته النفوس ، واستولى عليها ذلك الاستيلاء . لذلك كان النبى عليه الصلاة والسلام يرغب

الناس فى العتق ، كما جعل هناك احوالا يلزم فيهـا السيد بالاعتاق . فمن ذلك :

١ ـ أخبار النبى صلى الله عليه وسلم اصحابه غير مرة بأن العتق من أجل العبادة ، واقربها قبولا عند الله .

٢ ـ انه جعل كفارة لبعض الخطايا والحنث فى بعض الايمان .

٣ ـ أن مكاتبة العبد مستحبة بالاجماع ، وللامام احمد فى رواية أنها واجبة متى دعا العبد سيده اليها على قدر قيمته أو اكثر ، وأن للعبد الاستقلال ؛ ليحصل على ما يدفعه لسيده نظير الكتابة ، وأن على سيده أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء .

٤ ـ اذا امتنع المكاتب عن الاداء ومعه ما بقى ، فالحنفية تجبره على الاداء . واذا لم يكن معه مال ، ولكنه قادر على الكسب ، فالمالكية تجبره على الكسب ، لأنه ليس له تعجيز نفسه عنه ما دام قادرا عليه .

٥ ـ يراعى فى عقد الكتابة حالة الرقيق ، فأقل وعد من السيد ، أو اقل احتمال للوعد بالتحرير ، يجعل التحرير ضروريا .

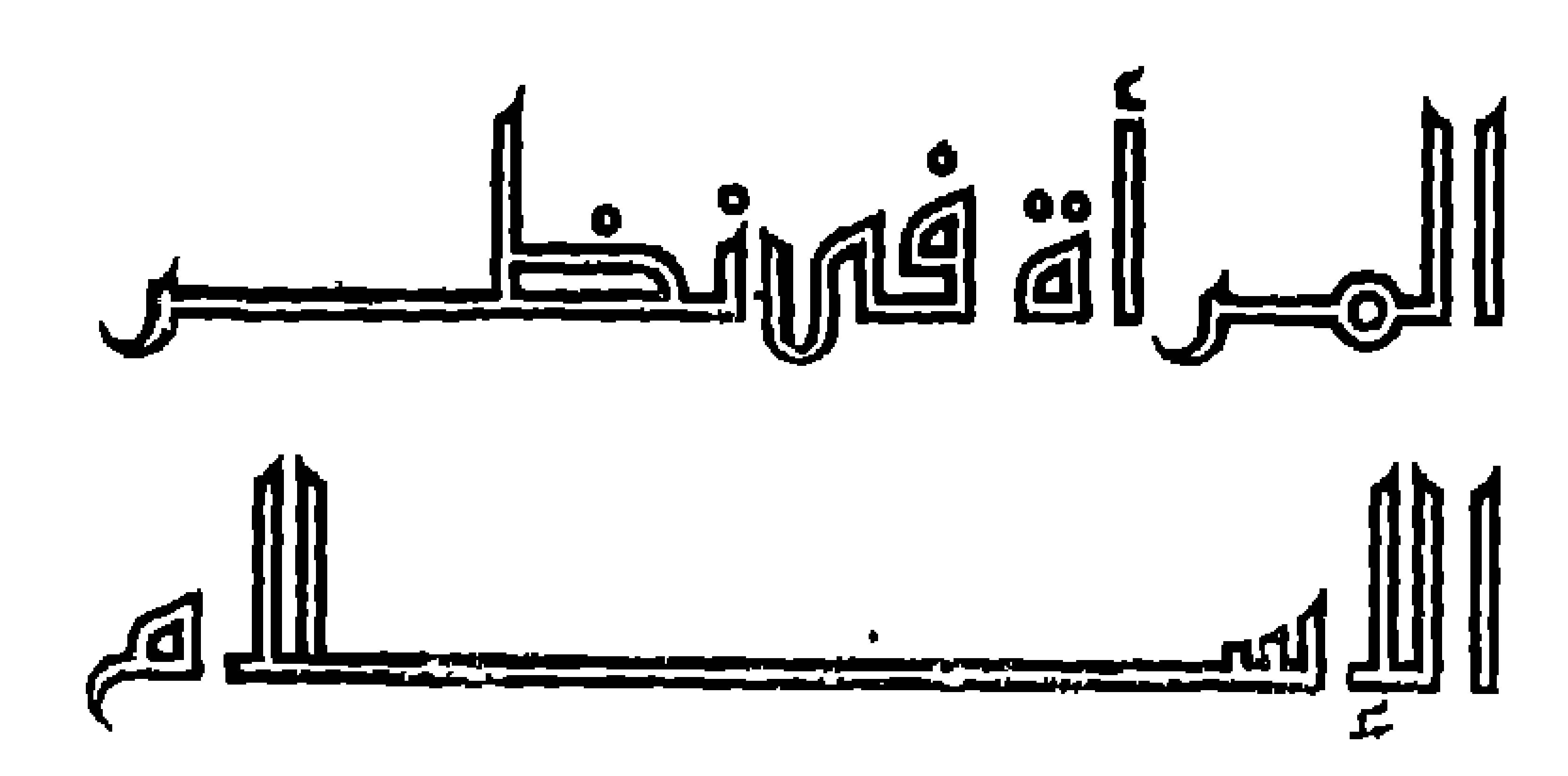
٦ ـ اتفق الائمة على انه لو كان فى يد انسان غلام بالغ عاقل وادعى عليه أنه عبده فكذبه الغلام ، فالقول قول المكذب مع يمينه أنه حر . فترى فى هذه الصورة أن قاعدة « البينة على المدعى واليمين على من انكر »

قد خولفت مراعاة لحالة الرقيق ، فلم يطلب الشرع من المدعى البينة أولا بل جعل القول للمنكر بيمينه ، ولا يخفى ما يدل عليه هذا من شدة حرص الشارع على تحرير الرقاب ، ما وجد لذلك سبيلا .

٧ ــ قد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب بأن يعطى الحاكم للرقيق المكاتب ما يستعين به على فك رقبته ، أو أن يشترى الحاكم العبيد المملوكين ويعتقهم .

٨ ــ أن من افترش أمة ، وأتى منها بأولاد ، فهى أم ولده لا يجوز له أن يبيعها ، ولكنها لا تتحرر تماما الا بعد موته .

٩ ــ استوصى النبى صلى الله عليه وسلم بالارقاء خيرا ، فجعل حقوق العبد على سيده كحقوق المترافقين والمتجاورين والمسافرين ، فلا يجوز للسيد أن يكلف رقيقه ما لا يطيق من العمل ، أو أن يدعوه بألقاب الازدراء والتحقير ، كما لا يجوز للسادة أن يفرقوا بين أنفسهم وبين عبيدهم في الأكل والملبس ونحوهما .


المرأة في نظر الإسلام

شـــــذرات

قبل التكلم عن المرأة فى الاسلام ، نأتيك بشذرات تبين لك شأنها قبل ظهور ذلك الدين الحنيف فى الامم المختلفة ، ثم نردف ذلك ببيان ما منح الله المرأة فى الاسلام ، غير معولين فى جميع ذلك الا على كتاب الله تعالى والسنة الصحيحة :

كلنا يعلم ما كانت عليه أمة الفرس من الحضـارة القديمة ، كما نعلم ما اشتهر به بعض ملوك فارس من العدل والفضل ، حتى ضربت بهم الامثال . أفأدلك على ما كانت المرأة تعامل به فيهم ؟ كان للرجل أن يتزوج من النساء من شاء ، من غير وقوف عند حد ، ولا تقيد بشرط ، ولا سؤال عن حق ، ولقد كان له أيضا أن يتخذ من الاخدان من شاء .

فاذا اعتبرنا العرب الذين ظهر فيهم النبى صلى الله عليه وسلم ، نجد حالة المرأة فيهم أبشع وأشنع ، فلقد كانت المرأة بين وثنيي العرب معتبرة سلعة محضة ، فاذا مات رجلها ورثت فيما يورث ، حتى كان للابن الوارث أن يفترش زوجة أبيه أو أمته ، كما كان له أن يهبها لمن شاء ، وان يبيعها لمن شاء ، هذا عند وثنيى العرب .

ولم تكن منزلة البنت اليهودية عند أبيها أرفع شأنا

من ملك اليمين ، فلقــد كان للأب أن يبيع ابنته قبــل بلوغها ، كما كان لابنه الذكر أن يفعل ذلك .

وقد كانت العرب تئد البنات ، اما من فاقة أو خشـية عار يأتينه متى كبرن ، حتى قال قائلهم « دفن البنات من المكرمات » .

هكذا كان شأن المرأة بين أكثر قبائل العرب وغيرهم ، فلم تكن بين الفرس والرومان الشرقيين أهنأ بالا ولا أعز شأنا ولا أكثر حرمة منها بين العرب .

ومن المعلوم أن أحسن القوانين ما لا يشتمل على التضييق ، ويلائم فريقـــا دون فريق ، وكذلك جاء القرآن الكريم والسنة المحمـدية بتلك النواميس التى تلائم ، بلا ريب ، أرقى الامم تحضرا وأصدقهم فكرا ، كما تلائم وتنطبق على الامم الذين لا يزالون فى مهد الفطرة الاولى .

المســـاواة

ساوى الاسلام بين الذكران والاناث فى جميع التكاليف الشرعية ، الا فى أحوال خاصة قليلة ، كما ساوى بين الصنفين فى الحقوق المدنية ، وجعل لكل ان يتقاضى حقه من الآخر ، وأن يبيع ويشترى ويعقد ما شاء من العقود ، ما دام عاقلا رشيدا .

جاء بذلك الاســــلام منذ أربعة عشر قرنا ، فتمتعت النساء بما ملكت ايمانهن من أموال وأعيان من غير توقف على اذن زوج أو تقرير مسيطر ، مع أن معظم أمم أوربا

لم يطلقوا العنان للمرأة ان تتصرف فيما ملكت يدها ، اللهم الا ما أدخلته الحكومة الانجليزية ، وقليل غيرها من أهل أوربا ، منذ خمسين سنة ، من القوانين التى خولت للمرأة فيها شيئا من ذلك ، ولم يكن هذا معروفا فيهم من قبل .

وقد كانت المرأة لا تكاد تمتاز عن الحيوانات العجم ، لا تقرأ ، ولا تفهم ، ولا تستفتى فى أمر ، ولا تقضى ولا تأمر ولا تنهى ، فهلا علمت ما فعل الاسلام ؟ جاء النبى فكان فى بيته أحسن أسوة للمسلمين ، وما زال صلى الله عليه وسلم تنزل عليه الآيات فى شأن النساء ، حتى أصبحن « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » .

أوجب الله تعالى تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة ، كما أوجب على أمهات المؤمنين أن يعلمن الناس ذكورهم وأناثهم « واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة » فكان الرجل « وكان ما كان فى الجاهلية » يأتى إليهن ويستفتيهن ويتلقى ما يلقينه من أحكام الله ومكارم الاخلاق ، وبذلك أخذت عقول الرجال ترجع الى رشدها ، وتعلم أن لا دخل لاختلاف الصنف ، أو الشعوب أو الامم ، فى التفاضل . فقد جعل الله التفاضل بين الكائنات تابعا لما فيها من الفضل والمزايا والخصيصات « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » لم يقل الله ان الرجال قوامون على النساء ، مسيطرون عليهن

بمقتضى الفطرة البشرية ، او لان عقولهم تخالف عقولهن ، ولكن الله جعل انفاق الرجل على المرأة من علل الفضل ، كما جعل من العلل أيضا ما قد يمنح الله القوامين على النساء من المزايا ، ولولا ذلك ما كان للرجل قوامة على المرأة ، ومن ذا الذى يستطيع أن يعتقد فضل بدوى عقله أخلى من أرض البادية على المرأة التى وصلت الليالى بالايام فى طلب العلم ، حتى تثقف عقلها وتهذبت نفسها . كلا ان الله لم يجعل التفاضل الا حيث يكون ما منح من الفضل كما قال : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقال : « هل يستوى الاعمى والبصير . أم هل تستوى الظلمات والنور » .

أباح الشرع للمرأة ، ما دامت من اهل التصرف فى مالها ، أن تتزوج بنفسها ، وأن توكل غيرها فى زواجها، ولا اعتراض عليها الا أن تضع المرأة نفسها فى يد غير كفء ، فهناك يعترض الولى عليها ويطلب من القاضى فسخ زواجها .

جعل الشارع للمرأة أن تشترط فى صلب عقدها أن يكون أمرها بيدها تطلق نفسها من الرجل متى شاءت .

ففى الدر « ان تزوجها على أن أمرها بيدها صح » قال ابن عابدين : « هذا مقيد بما اذا ابتدأت المرأة فقالت : زوجتك نفسى على أن أمرى بيدى ، فقال الزوج : قبلت » .

ولقد يعترض على قسمة المواريث من لم يتدبر ، اذ قضى للمرأة أن يكون لها نصف نصيب الرجل فيتوهم ان فى هذا اجحافا بحقوقها ، ولكنا عند التأمل نجدها قد

زاد حظها وجل نصيبها ، وذلك ان المرأة كما سيأتى عالة على الرجل فى معظم أدوار حياتها ، فيجب عليه شرعا أن ينفق عليها ، ويأتى اليها بمطالبها ، كما يقتضيه عرف القبيل الذى هما فيه . فاذا كلف الشرع القوامين عليها من الرجال أن يقوموا بجميع حاجاتها بالمعروف ، فتقدير الشارع لها حظا من المواريث غاية فى الرأفة بها ورعى جانبها والعناية بشأنها .

فأين حجر الاسلام على المرأة وأين التضييق عليها من هذه المسامحة ؟

تعدد الزوجات فى الاسلام

تقدم لنا التلميح الى ما حشا به الاوربيون كتبهم من الطعن فى الاسلام ، متمسكين بما أباحته الشريعة من اباحة تزوج أكثر من واحدة ، ولو كانوا يعرفون العربية، ويفقهون كتاب الله وقواعده ، ما استطاعوا ان يلصقوا بالاسلام ما ليس من شيمه .

ان النقائص التى مثلت بالاسلام فى أعين غير أهله ، انما نشأت من اعتبار أعمال الخلف الصالح ، ميزانا لتقدر بها قوانين الشرع ونواميسه ، فمن قائل بسد باب الاجتهاد ، ومن امام او خليفة قضت عليه اغراضه البهيمية أن ينتهك حرمات الله ثم يحارب الله فينسب اليه ما ليس من دينه فى شىء ، ومن عالم اشترى الحياة الدنيا بالآخرة ، فأفتى بما يطابق أهواء ملك أو أمير تذرعا الى الزلفى منه ، ومن أحمق ارعن لم يرض من اليسر ما رضى الله لعباده فشط بالناس واعتسف

بهم ، حتى ضاقت نفوسهم ، وأيقنوا بالعجز عن احتمال تكاليف الدين فانقطعوا عنه ظانين بالدين الظنون .

جاء القرآن فأباح أن يتزوج الانسان مثنى وثلاث ورباع ، ولكن الله تعالى يقول : « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » فتراه قد شرط اباحة تعدد الزوجات بالعدل، كما جعل مجرد خوف الجور والظلم سببا كافيا فى تحريم التعدد ، ثم نراه قد اعتبر البشر عاجزين عن العدل بين النساء ولو حرصوا . فما بالنا مع جميع ذلك نرى كثيرا من المسلمين يفقهون بعض آيات الكتاب دون بعض ؟ عجبا أغفل الناس كثيرا من القواعد الاسلامية التى يجب تقدير الاعمال بها وزنة التصرفات الانسانية بميزانها .

واعلم أن المعتزلة ، وهم كما تعلم من المسلمين ، يقولون بعدم جواز أن يتزوج الرجل ثانية ما دامت الاولى فى عصمته ، كما ذكره الامير على فى كتابه «سر الاسلام» وما ذلك الا لأنهم تتبعوا ما يجلبه ذلك من المفاسد والمضارة ، وعرفوا أن من أصول الشريعة المحمدية اعطاء الوسائل ما للغايات من الاحكام ، فرأوا آثار تعدد الزوجات كثيرة سيئة لا يستحسنها عقل ، ولا يرضى بها شرع فحكموا بتحريمه .

لم يصرح القرآن بتحريم تعدد الزوجات بتاتا ، وذلك لأنه أرسل رسوله للناس كافة بشيرا ونذيرا ، ولا ريب أن ثمة أحوالا يحسن أو يجب فيها تعدد الزوجات ، ولا يمكن لأحد الفرار من الاعتراف بوجود كثير من الاحوال التى تقتضى ذلك . ولأضرب لك مثلا : رجلا تزوج امرأة فأصابها مرض مزمن ، ورجلا تزوج امرأة

فكان يستمر معها الحيض الى خمسة عشر يوما ، ورجلا تكره امرأته المباشرة فى كثير من أشهر الحمل ، وهلم جرا . فأمثال هؤلاء الرجال اما أن يصبروا مع العنت والشقة ، وقليل الصابرون ، واما أن يأتوا الفاحشة ، وأولئك هم الخاطئون .

اننى لأرى ، كما يرى كل عاقل ، أن تعدد الزوجات بالغة مثالبه ما بلغت ، أسلم عاقبة من اتيان الفاحشة ، ومن الشواهد التى يحسن ذكرها ما نقله الامير على فى كتابه « سر الاسلام » عن السيدة غوردون الانجليزية: أنها تأملت فى أحوال كثير من البلاد الاسلامية او الشرقية اجمالا ، فرأت أن تعدد الزوجات أكثر ما يكون فى البقاع التى تكثر فيها الفاقة ، وتقل فيها المرافق ، فيصعب على النساء الاعتماد على أنفسهن فى تحصيل المرافق والاخذ بأسباب العيش ، وقد رأت تلك السيدة أن هذه احدى الضرورات التى يخول معها التعدد .

جمعتنى المصادفات برجل أسبانى قابلته فى لندن ، فمكثنا نتحادث فى كثير من مسائل الدين الاسلامى ، فمما خضنا فيه أمر تعدد الزوجات ، فقال : انه يتمنى لو كان مسلما فيتزوج امرأة غير زوجته . فسألته فى ذلك فقال : ان امرأتى قد أصيبت بجنون ، وها هى تلك تعالج فى بيمارستان « مجريط » ولها على ذلك سنون كثيرة . ولقد اضطرنى الامر أن أتخذ بعض الأخدان لعدم استطاعتى التزوج بأخرى ، فلو أن هذا كان مباحا لنا لكان لى عقب شرعى يرثنى فيما لدى من المال الكثير ، ويكون لى قرة عين وخير رفيق أطمئن به وأسكن اليه .

ثم تقابلت فى اكسفورد مع دكتور فاضل ، وقد جرت

عادة الانجليز أنهم متى رأوا غريبا سـألوه فى جميع ما يلج فى صدورهم . سألنى ذلك الدكتور عن وجه تعدد الزوجات فى الاسلام ، وذكر أنه يستقبحه ، فما زلت به حتى كاد يذعن لما أبديت له من الاسباب ، ثم قال : اننى أكاد أرى وجه ما تقوله ، ولكن لى كلمة فى نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فقلت : ما هى ؟ قال : ان منزلة النبوة التى ادعاها كان يجب أن تحول بينه وبين اكثاره من عدد الزوجات . فعند ذلك قلت له : اننى يا سيدى كثير التجارب ، وقد رأيت فى الانجليز وفى المصريين والاتراك والفرنسيس وغيرهم من الامم من لا يقنع بواحدة ولا يعكف على ما أحل الله ما دام يملك شيئا من المال ، وهذا أيها السيد احد الاسباب فى قلة ذرارى الاغنياء والمثرين وكثرة عيال الفقراء والمعوزين ، ولو ملكت أيديهم فضلا عن المال والسعة لمـا قنعوا بما أوتوا . افتنكر بعد ذلك أن تعـدد الزوجات أدعى للعفـة والحصانة ، وأضمن لنمو بنى الانسان ؟ فما كان من ذلك الفاضل الا أن قال : ان معظم ما قلته حق لا مراء فيه . ثم ذكرت له أسباب اكثار النبى من النساء مما سنأتى عليه بعد ، وانما لم أبدأ بذكر تلك الاسباب لاننى قصدت الزامه من أول الامر بضرورة تعدد الزوجات فى بعض الاوقات أخذا بما عليه الناس فى أحوالهم الدنيوية ، التى لا يسعه انكار شىء منها ، فلما أضعفت من قوة تعصبه ، وفللت من حدته ، أخذت أسرد له الاسـباب التى لم يجد لانكار شىء منها سبيلا .

***

والخلاصة ان اعتبار كون تعـدد الزوجات مصدرا

لكثير من المفاسد . انما هو أمر اضافى . ولا يمكن اتخاذه حكما عاما . فان ذلك يختلف باختلاف الامم والازمنة والامكنة والاحوال . أنظر الى ما كان معروفا فى بدء النصرانية من استقباح الزواج رأسا وتقبيح المتزوجين وتفضيل الرهبانية .

ولقد قضت الرهبانية فى الاعصر الخالية ان يقبر فى الديور كثير من العقول الزكية ، التى لم يجن منها عالم الحياة الدنيا أقل فائدة ، أما منشأ ذلك فقد كان اما تقليدا للمسيح عليه السلام ، أو لبعض أسباب أخرى كالتفرغ المطلق الى عبادة الحق تعالى ، ولا يزال قساوسة الكاثوليك يذهبون ذلك المذهب ، ويزدرون المتزوج لما دنس نفسه بميله الى الشهوات الحيوانية ، قالوا : ان المسيح عليه السلام روح الله ، فكان أقدر الناس على غلبة شهواته ، قارنوا بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم القائل : « لا رهبانية فى الاسلام » ثم انتهى بهم القياس الى الحط من كرامة الاخير . وقالوا : شتان بين من غلب نفسه ، وبين من استرسل مع هواها فأرضاها ، ولا يخفى بطلان هذه القضية فانه لا تنافى بين الصلاح والزواج . على ان تقليد المسيح فى رهبانيته لا يبلغ غايته الا بخراب البيوت وتلاشى الامم وانقراض النوع الانسانى ، ولا يخفى أن هذا ينافى مقتضيات العمران ، ومطالب نظام الاكوان .

لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فيما أتاه بدعا من الرسل ، فان موسى وداود عليهما السلام تزوجا كثيرا من النساء ، وهما الرسولان اللذان لا يسع نصرانيا ولا يهوديا انكار نبوتهما ، أو احتقار ما أتيا به من الصحف السماوية الاولى .

زوجات النبى

هذا ونذكر لك فى زوجات المصطفى صلى الله عليه وسلم ما فيه غناء ان شاء الله تعالى . فنقول : اعلم أن أكثر المسلمين اتفقوا على أن للنبى صلى الله عليه وسلم من الخصائص ، ما لم يكن لغيره من أمته ، وذكروا أشياء منها تجاوزه بالزوجات العدد الذى أباحه لغيره بشروطه ، ولا يخفى أن مثل هذا لا يكفى لاقناع غير المسلمين ، الذين نددوا بالنبى عليه الصلاة والسلام ، ولم يجدوا فى كتب المسلمين ما ينهض حجة لهم ، اللهم الا قليلا ممن أيده الله بروح منه . فنريد أن نذكر لك من أسباب ذلك ما فيه مقنع ان شاء الله .

فاعلم ان أول أزواج النبى صلى الله عليه وسلم خديجة تزوجها قبل البعثة وهو ابن خمس وعشرين على أنها كانت بنت أربعين سنة .

قضى النبى صلى الله عليه وسلم شبيبته ، وطائفة من كهولته ، ولا زوج له الا خديجة ، ماتت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات ، بعد أن مكثت مع النبى صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة ولدت له فيها جميع اولاده ، ما عدا ابراهيم ، فلم يتزوج النبى قبل بعثته من شاء ، وهو فى ريعان شبابه ، وقد كانت العرب ، على ما علمت ، يكثرون من الزوجات حتى ان منهم من كان تحته العشرون فى وقت واحد . فلو كان هناك سلطان للهوى ، على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، لاتخذ من الزوجات من شاء ، وهو فى مقتبل شبابه ، واستكمال قواه الطبيعية ، لا شرع يحول بينه

وبين بغيته ، ولا عادة تمنعه مراعاتها ، من قضاء مآربه، ولا سيما وقد كان مرغوبا فيه بين الناس لما اشتهر به من مكارم أخلاقه ، وجميل خصاله .

بعد أن ماتت خديجة ببضعة أشهر ، تزوج النبى صلى الله عليه وسلم سودة ، وكانت ايما مات عنها زوجها عقب رجوعه من الهجرة الثانية الى الحبشة ، وكانت قد اسلمت رضى الله عنهـــا وخالفت بنى عمها وأقاربها ، فمـــا أجمل ما عمله النبى من الرحمة بهـــا وتعويضها خيرا مما فقدت ، فقد مات عنها زوجهـــا ولا حامى لها دون أقاربها الذين اسلمت رغم أنوفهم ، فكان تزوج النبى بها حماية لها أن تصل اليها يد الاذى، كما كان ذلك أكبر سلوان لها على فقد زوجها .

مات أبو طالب لشهر من موت خديجة ، ففقد النبى بموته رجـــلا كان يناضل عنه ، ويدفع عنه أعداءه ما استطاع ، فأخذ الامر اذ ذاك يشـــتد على النبى صـــلى الله عليه وســـلم ، فرأى أن يوثق الرباط بينه وبين قريش ، فعقد على عائشة ، وهى اذ ذاك بنت سبع ، فان أباها الصديق رضى الله عنه كان صدرا وجيها فى قريش ، واسع المال ، عزيز الجانب ، يدلك على ذلك مسارعة النبى صلى الله عليه وسلم بالعقد عليها ، مع أنها قاصر وانه لم يبن بها الا بعد ذلك بنحو سنتين ، فلم تكن وقت ذاك مطمعا لقضـــاء شىء من المآرب الشهوية ، حتى يطمح اليها نظر النبى أو غيره .

ومن هذا القبيل تزوجه صلى الله عليه وسلم بأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانت ببلاد الحبشة فى الهجرة الثانية . مات عنها زوجها هناك ، وما هو الا أن انقضت

عدتها حتى أبلغها النجاشي أنه قد كتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليزوجه اياها .

كل من أطلع على التاريخ يعلم مقدار ما كان بين النبى وبين بنى أمية من العداء ، كما يعلم أنه قد كان أبو سفيان ألد بنى أمية عداوة لرسول الله والمسلمين ، فانه لم يدخل فى الاسلام الا بعد أن نال المسلمين ما نالهم من أذاه الشديد ، فتزوج النبي عليه السلام أم حبيبة ليكون بينه وبين ألد أعدائه لحمة نسب ، تكون له فى الجملة وسيلة الى حملهم على تقليل الاذى عنه ، كما أنه صلى الله عليه وسلم اختارها لنفسه ، لانها خرجت من ديارها فارة بدينها ، ففى عدم حمايتها ووقايتها — وقد مات زوجها — تعريض لها الى مقاساة المصاعب والاهوال ، وانما اختارها النبى لنفسه لمكانتها فى قومها ، فلو أنها زوجت بغير كفء لاتخذ بنو أمية ذلك شبهة يوغرون بها صدور بيوتاتهم ، ويحرشونهم بالمسلمين على قلتهم وضعفهم .

وكانت الأسرى من النساء يتخذن اماء لا يسوى بينهن وبين الحرائر فى شىء ، كما أنهن قلما اعتقن ، فأراد النبى أن يعلم المسلمين بالعمل ما ينبغى أن يصنعوا بما فى أيديهم من الاسرى من التحرير والكرامة ، وأن يجعلن سيدات البيوت ، فمن ذلك تزوجه بجويرية . قالت عائشة رضى الله عنها : أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبى بنى المصطلق فأخرج الخمس منه ثم قسمه بين الناس فأعطى الفارس سهمين والرجل سهما ، فوقعت جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار فى سهم ثابت ابن قيس ، فجاءت الى الرسول فقالت : يا رسول الله

أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه ، وقد اصـــابني من الامر ما قد علمت ، وقد كاتبني ثابت على تسع أواق فأعني على فكاكي ، فقـــال : أوخير من ذلك ، فقـــالت : ما هو ؟ فقال : أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك ، فقالت : نعم يا رسول الله فقال : قد فعلت ، وخرج الخبر الى الناس ، فقالوا : أصهار رسول الله يسترقون ، فأعتقوا ما كان في أيديهم من سبي بني المصطلق ، فبلغ عتقهم مائة بيت بتزوجه عليه السلام اياها . فانظر الى ما قصد الرسول عليه السلام من تزوجه بها .

ومن ذلك أيضا تزوجه بصفية بنت حيي ، وكانت من أشراف بيوت اليهود ، ثم صـــارت سبيا بعد وقعة خيبر ، وكانت مما اصطفاه صلى الله عليه وسلم من الغنائم .

وعن ابراهيم بن جعفر عن أبيه قال : لما دخلت صفية على النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : لم يزل أبوك من أشـــــد اليهود لي عداوة حتى قتله الله . فقالت يا رسول الله : ان الله يقول في كتابه « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فقال لهـــا رسول الله : « اختاري فان اخترت الاسلام أمسكتك لنفسي ، وان اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك » . فقالت : « يارسول الله ، لقد هويت الاسلام ، وصدقت بك قبل أن تدعوني حيث صرت الى رحلك وما لي في اليهودية أرب ، وما لي فيها ولد ولا اخ ، وخيرتني الـكفر والاســلام فالله ورسوله أحب الي من العتق ، وان أرجع الى قومي . قال فأمسكها رسول الله لنفسه ، وقد رضيته بعلا ، مع أنه كان لها أن ترجع الى أهلها بعد العتق .

هذا واعلم ان أمر الثار فى الجاهلية معروف ، وقد حاول كثير من الانبياء كموسى والسيد المسيح وغيرهما حقن الدماء . ونسخ تلك العادة القبيحة ، فلم يفلحوا ، لما أن ذلك كان أمرا راسخا فى نفوس العرب أشربته قلوبهم فلم ينجع فيهم دواء ، حتى أتى النبى فجعل من عقود أنكحته ما ربط كثيرا من القبائل بعضها الى بعض، فبذا قرب ما بينها ، وأزال كثيرا من أحقادها ، وأطفأ ثورة ما فى صدورها من الغل والضغائن ، حتى قلت فى ايامه صلى الله عليه وسلم الغارات ، وكاد يتناسى أمر الثارات .

زواج النبى بامراة زيد

هذا وتتميما لهذا الموضوع نريد ان نذكر كلمة فى تزوج النبى صلى الله عليه وسلم بزينب امراة مولاه زيد :

قال الشيخ محمد عبده (١) أن زينب كانت بنت عمة النبى صلى الله عليه وسلم ، ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها لأول الامر ، حتى انه اختارها لمولاه زوجة مع ابائها واباء أخيها وعد هذا عصيانا ، وما زال كذلك حتى نزل فى شأنها آية : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » .

ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم

(١) أنظر تفسير سورة الفاتحة .

لكان أقوى سلطان عليه جمال البكر فى روائه ونضرة جدته ، وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب ، ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة ، فكيف يمتد نظره اليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم الله عليه بالعتق والحرية ؟ لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر أن تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب الى أن تبلغ حد العشق خصوصا اذا كان عشيره منذ صغره بل المألوف زهادة الاقرباء بعضهم فى بعض متى تعاشروا ، فكيف نظن أن نتوهم أن النبى الذى يقول الله له : « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا » يخالف مألوف العادة ، ثم يخالف أمر الله فى ذلك ؟ أم كيف يخطر بالبال أن من عصم الله قلبه عن كل دنيئة يغلب عليه سلطان شهوة فى بنت عمته ، بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده ؟

« أن النبى لم يبال باباء زينب ورغبتها عن زيد ، وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة ، وتفسد به شئون المعيشة ، فما كان له وهو سيد المصلحين أن يرغم امرأة على الاقتران برجل ، وهى لا ترضاه مع ما فى ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين ، لولا أن النبى يجد من نفسه ان هذا القران مقدمة لتقرير شرع وتنفيذ حكم الهى ، ذلك أن التصاق الادعياء بالبيوت ، واتصالهم بأنسابها كان أمرا تدين به العرب ، فكانوا يعطون الدعى جميع حقوق الإبن ويجرون عليه وله جميع الاحكام التى يعتبرونها للابن حتى من الميراث وحرمة النسب ، فأراد الله محو ذلك بالاسلام ، حتى لا يعرف من النسب الا الصريح

« وما جعل أدعياءكم أبناءكم » ثم قال : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم » فبين الله أن ليس للمتبنى الا حق المولى والأخ فى الدين .

« وكان من عادة المصطفى أن يبادر فى كثير من شرائعه الى اقامتها بنفسه ، ليكون قدوة حسنة ، ومثلا صالحا تحاكيه النفوس ، وتحتذيه الهمم ، وحتى يخف وزر العادة ، وتخلص العقول من ريب الشبهة . وعلى هذه السنة جاء تزوجه بزينب ، اذ ألهمه الله تعالى أن يتولى الامر بنفسه فى أحد عتقائه ، لتسقط العادة بالفعل ، كما ألغى حكمها بالقول الفصل . فبعد أن صارت زينب الى زيد لم يلن اباؤها الاول ، ولم يسلس قيادها ، بل شمخت بأنفها ، وذهبت تؤذى زوجها ، وتفخر عليه بنسبها ، وبأنها أكرم منه عرقا ، وأصرح منه حرية ، لانه لم يجر عليها رق ، كما جرى عليه . فشكا ذلك الى النبى غير مرة وهو يقول له : « امسك عليك زوجك واتق الله » الا أنه لم يستطع الصبر على معاشرتها فطلقها ، ثم تزوجها النبى ليمزق من حجاب تلك العادة ، كما قال تعالى : « لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » وأكد ذلك بالتصريح فى نفى الشبهة بقوله : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » وقد قال العرب اذ ذاك تزوج محمد حليلة ابنه .

« قال أبو بكر بن العربى : فأما قولهم أن النبى صلى الله عليه وسلم رآها فوقعت فى قلبه فباطل ، فانه كان معها فى كل وقت وموضع ، ولم يكن ثمة حجاب ، فكيف

تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها فى كل ساعة ولا تقع فى قلبه الا اذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله ، فكيف يتجدد هوى لم يكن .. » اه ملخصا .

***

وهكذا كانت سنة النبى صلى الله عليه وسلم فى جميع زيجاته فلم يكن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه السنوات التى أكثر فيها من الزوجات أخضع لشهوته منه وقد كان فتيا لم يكلف بشىء من أعباء الرسالة ، ولم ينزل به من أذى قريش وعدائهم ما كان يضعف عن احتماله ، لولا أن جعله الله من الصابرين ، هذا كله على فرض أن أنكحة النبى صلى الله عليه وسلم كانت كلها أو بعضها بعد نزول آية : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » أما اذا كانت قبل ذلك كما حققه الامير على فى كتابه « سر الاسلام » فلا حاجة الى التماس شىء من تلك الاسباب . قال الامير على : أن ميمونة بنت الحارث كانت آخر من تزوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك فى السنة السابعة للهجرة ولم تكن الآية نزلت بعد ، ثم أن الله تعالى بعد ذلك لم يبح للنبى أن يتزوج على من عنده ، كما فرض عليه الا يتبدل بهن أزواجا أخريات فقال : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من ازواج ولو أعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك » أى الا من سبق لك التزوج بهن .

وهنا مسألة أولع بايرادها كثير من أحداث هذا الزمان ، قالوا : لم جاز تعدد الزوجات على شرط دون تعدد الازواج ؟

فاعلم ان ذلك يفضي بداهة الى اختلاط الانساب ، فيقع اللبس فى نسبة النسل ، ولا يخفى أن ذلك يفضى الى تعطيل كثير من الاحكام الدنيوية ، كالنفقة والارث وغيرهما .

وهنا مسألة أخرى وهى أنه لم جاز للمسلم أن يتزوج كتابية بخلاف العكس ؟ وجوابها ان الاسلام جعل لكل كتابى أن يبقى على دينه ، فالكتابية فى يد المسلم آمنة على دينها بخلاف العكس ، فان المسلمة فى يد الكتابى لا تؤمن أن تفتتن فى دينها ، فانه لا وازع له من دينه يحول بينه وبين فتنة غيره ، ولا سيما من له عليه سلطان كزوجته ، والناظر لما يفعل دعاة النصرانية فى العصر الحاضر يرى جليا وجه ما قلناه ، ومن هنا يعلم أن المراة لم تبخس شيئا مما منحه الرجل .

الطــــلاق

مما عد وصمة فى الاسلام اباحة الطلاق ، ولذا ينبغى لنا أن نأتى ببيان ما سيكشف لك ان شـــاء الله وجه الصواب فيه ، فنقول :

اعلم ان الطلاق أباحه الله للمسلمين لانه قد تدعو اليه الضرورة ، أما حيث لا ضرورة فسماه النبى صلى الله عليه وسلم أبغض الحلال الى الله ، كما أن المسلمين اتفقوا على النهى عنه عند استقامة الزوجين ، فمنهم من قال انه نهى كراهة ، ومنهم من قال نهى تحريم وقد رأت الحنفية تحريم الطلاق بلا سبب ، ويؤيد ذلك أنه اضرار ، وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عنه فى قوله : « لا ضرر ولا

ضرار » ولقد كره النبى صلى الله عليه وسلم أن يطلق زيد زوجتـــه زينب ، مع أنهـــا كانت تكثر من ايذائه والاستخفاف به حسبما تقدم لنا آنفا ، اما الطـــلاق بسبب فلم يرفضه أحد ، ولكن اختلفوا فى بيان الاسباب، قال ابن عابدين : وأما الطلاق فالاصل فيه الحظر أى الحرمة ، والاباحة للحـاجة الى الخلاص ، فاذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة الى الخلاص ، بل يكون حمقا وسفاهة رأى ومجرد كفران للنعمة وايقاع الايذاء بها وبأهلها وأولادها ، ولذا قالوا ان سببه الحاجة الى الخلاص عند تباين الاخلاق وعروض البغضاء الموجبـة عدم اقامة حدود الله تعالى ، فحيث تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعا يبقى على أصله من الحظر ، ولذا قال تعالى : « فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » أى لا تطلبوا الفراق • أهـ

أما غير المسلمين ، فمنهم من لم يجوز الطلاق أصلا الا للزنا ، كالأمة الانكليزية ، فأيهما اقترفه كان للآخر ان يرفع الامر الى المحكمة ليفصل القاضى بينهما . أما اهل الولايات المتحدة بأمريكا فكانوا على هذه السنة ، ثم وجدوا أن هناك اسبابا اخرى يتحتم معها الطلاق ، ولكن لا فرقة عندهم الا بقضاء قاض ، ولابد لجميعهم ان يرجعوا الى ما قرره الاسلام من الاسباب .

نعم ان الشريعة الاسلامية لم تقف تنفيذ الطلاق على حكم الحاكم ، وقصار النظر من الناس يرون أن الاول اعدل ، لان فيه محاسبة الرجل والمرأة على ما يعملان ، فلم يخل السبيل للرجـل يفعل ما يريد . ولـكن دين الاسلام اقوى ركنا وأحكم وضعا وابعد مرمى ، فلم يفعل

ذلك الا لحكمة صالحة ، ذلك أن فى تطبيق الطلاق على حكم القاضي بثبوت الزنا أقبح تشهير للمقترف وأشنع سبة تنفر عن مرتكبه القلوب ، وتشوه سمعته فى العالم ، ولا سيما فى مثل هذا العصر الذى تطوف جرائده فى الشوارع والازقة والدكاكين والبيوت والمصانع ، وتنتقل من أرض الى أخرى ومن يد الى غيرها ، مشحونة بتفاصيل ما يعرض فى المحاكم من هذه القضايا ، آتية على ما قل منها وما جل فمن ذا الذى يقبل على تزوج رجل أو امرأة قطعت سمعتها الشنعاء المشارق والمغارب؟ يقضي ذلك الرجل وتلك المرأة ما بقي من العصر مرذولين مجفوين ولو استقاما بعد ذلك وأصلحا ، أما الاسلام فانه جعل للقاضي فسخ الانكحة فى أمور لا بأس فى اعلانها ، بل ان اعلانها هو المصلحة الكبرى ، من ذلك : العنة والجنون والبرص والجذام والاعسار بالنفقة والكسوة والمسكن ، مما تراه مبسوطا فى كتب الفقه متى رجعت اليها . أما غير هذه الاسباب مما قد يزول أو لا كبير خطر في بقائه ، فللرجل أن يطلق من غير أن يكلف بيانا فيه . فما أجمل ستار الشرع الذى يخفى كثيرا من النقائص ، رجاء أن تزول من قبل أن يظهر عليها أحد ، وما أرأفه بالانسان الذى قد يهفو ثم يبدو له فينيب .

هذا . واعلم ان الديانة المسيحية لم تمنع الطلاق أصلا ، وغاية ما ورد فى الانجيل أن من طلق امراته وتزوج أخرى فهو زان ، وهذا لا تعرض فيه لحكم الطلاق أصلا .

واعلم ان الطلاق فى الاسلام ، كما هو معلوم ، حق من حقوق الزوج « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » ولكن

الاسلام مع ذلك قد جعل للمرأة ، كما تقدم ، ان تشترط في العقد أن تملك ذلك كما عليه الحنفية ، فاذا لم تشترط ذلك هي أو وليها فقد أقرت الرجل على الحق الذي خوله له الشرع ، ولكن مع ذلك لا يجوز له ان يوقعه الا حيث يراه الشرع حسنا صالحا .

هذا ولم يعتبر الاسلام زنا الرجل من الاسباب التي تطلب بها المرأة فسخ الزواج ، ولا العكس ، الا ممن قذف امرأته أو رماها بالزنا أو نفي حملها ، ولا بينة له ، فان له أن يلاعن زوجته وتلاعنه ، ثم يفرق القاضي بينهما . والسبب في ان هذه التفرقة لم تبن على مجرد الزنا من حيث هو زنا بل من حيث ما يستتبعه من الاحكام الدنيوية المتعلقة بما عسى أن يكون من الاولاد ، ولذا كان رمي المرأة الرجل بالزنا لا يصلح علة للفرقة بل ان لهذا حكما آخر ليس هذا موضوع الكلام فيه .

***

فمما تقدم لنا هنا نرى ان الاسلام لم يجر في جميع ما سردناه عليك هنا الا على مقتضى أصل الفطرة . فرفع شأن النساء حتى ساوين الرجال فيما يمكن من المزايا والحقوق ، ثم لم يبخسهن شيئا ، كما اباح للرجال ما أباح من تعدد الزوجات والطلاق مقرونا بما وضعه وفروه من الشروط — ولكن لو انصف الناس لاستراح القاضي — حارب المسلمون دينهم وما شرط لهم ، فكان اكثرهم اباحيين لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ماكانوا يفعلون .

كان الطلاق قبل الاسلام منتشرا في جميع امم العرب يهوديها ومسيحيها ووثنيها ، وكذا بين الرومانيين ، فلقد

اعتبر قانون « الموائد الاثنتى عشرة » الطلاق جائزا . أما ما تشدق به بعض المتشيعين لهم من انهم لم يعملوا بهذا القانون الا بعد خمسة قرون مضت من عهـد تأسيس مدينتهم « رومة » فلم يكن سببه ما يدعون من بغضهم للطلاق ، ولكن لان الرجل فى تلك القرون كان له أن يقتل امراته عقابا لها على بعض الجرائم كالسكر ، فكانت عند الرجل كالرقيق ، كما انها اذا طلبت من زوجها الطلاق اعتبر ذلك منها قحة ونشوزا يخول له عقوبتها . نعم ان الرومانيين فى أخريات امرهم اصلحوا كثيرا من شأن المراة وانصفوها ، اذ ساووا بينها وبين الرجال فى كثير من الاشياء .

يقول الامير على : ان المعتزلة لا يجوزون وقوع الطلاق الا بحكم القاضى الشرعى العـادل ، فلا بد أن يمتحن الاسباب بلا تحيز ، فيوقع الطلاق أو يرفضه حسبما يراه صالحا . ومن هنا يظهر أن من طوائف الاسلام من يعلقون وقوع الطلاق بحكم القاضى ، فـلا يصح عندهم وقوع الطلاق من الزوج الا بعد محاسبته وامتحان أسباب ما يريده من الفرقة .

تعـدد الطلاق

واعلم ان من أكبر الدلائل على بغض الشرع للطلاق أن جعل للرجل ان يسترجع امرأته فى الطلقةالاولىوالثانية، لانه ربما كان التطليق لثورة غضب ثارت فلم يملك نفسه حتى يتروى ويتدبر ، فرجا الشرع أن يرجع اليه رشده فيتدارك ما فرط منه حتى اذا طلق الثالثة وجبت عقوبته

بعدم جواز الرجعة حتى تتزوج غيره لما تبين من انه سفيه الرأي ضعيف العزم ، ولا يخفي ما في هذا الشرط من السر الحكيم ، واذا أردت بزيادة بيان فتدبر قوله تعالى : « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها أن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما » أيقول الله ان يريدا طلاقا يفرق الله بينهما أم ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ؟

وتفهم قوله تعالى : « خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » فقال لتسكنوا اليها ولم يقل لتطلقوها ، وقال وجعل بينكم مودة ورحمة، ولم يقل بغضا وقسوة ، وقوله تعالى : « امسك عليك زوجك » أمر النبي عليه السلام زيدا بأن يمسك زوجته فلا يطلقها ، مع انها كما تقدم كانت تكثر من مضارته واساءته ، وقال تعالى : « فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » أي فلا تطلقوهن ، ومن هنا استنتج ان الاصل في الطلاق التحريم ، الا لسبب كما تقدم لنا .

خاتمـــــة

ونريد أن نأتيك هنا بملخص ما كتبه الاستـــاذ الامام الشيخ محمد عبده ، مما يناسب هذا المقام ليكون له احسن ختام :

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه ، وقرر أن لكل نفس ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » « وان ليس للانسان الا ما سعى » وأباح لكل أحد أن يتناول

من الطيبات ما شاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ، ولم يحظر عليه الا ما كان ضارا لنفسه أو لمن يدخل فى ولايته أو ما تعدى ضرره الى غيره وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة ؛ فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها ، اللهم الا حقا محترما تصطدم به . أنحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عند القدر ، فبدت فيالقه المتغلبة على النفوس ، واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم ، وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هياكل الوهم « نم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والأزواد قليلة » .

علا صوت الاسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام ، أعلام الكون ودلائل الحوادث ، وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون .

صرح فى وصف أهل الحق بأنهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا مما علموا أحسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ، ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ، ووضعهم تحت انظار مرءوسيهم يخبرونهم كما يشاءون ويمتحنون

مزاعمهم حسبما يحكمون ، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون .

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسميا لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان ، وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من اسلافه وآبائه ، وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها اهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم « قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » وان ابواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب .

عاب ارباب الاديان فى اقتفائهم اثر آبائهم ووقوفهم عندما اختطته لهم سير اسلافهم وقولهم « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » .

أثر القرآن
في تحرير الفكر البشري

حرية الفكر قبل الإسلام

لعل من المستحسن ـ قبل ان اتكلم فى اثر القرآن الكريم فى حركة الفكر البشرى وتحريره ـ ان الم بنبذة تاريخية فيما كانت عليه الامم الكبرى فى طائفة من القرون التى سبقت ظهور الاسلام من التطورات ، وما تعاقب على العقول فيها من المد والجزر ، والتحرير والاستعباد ، فان فى ذلك ما يعيننا على ادراك مدى ما فعل القرآن فى انصاف العقل الانسانى واحلاله المقام الذى خوله خالقه منذ فطره واوجده .

كان أساس القانون العام السياسى فى الامبراطورية الرومانية اباحة علنية الاديان وجميع العقائد والافكار وما زال الامر هنالك كذلك حتى دخلت باوربة الديانة المسيحية التى ابتدأ بها عهد الحجر والحظر على ما سيأتى تفصيله .

لقد كان من اهم الدعاة الى تحرير الافكار من قيود الخرافات والتقاليد ، والقصص المزعجة التى كان يستعملها بعض شعراء اليونان ، ورجال الاديان فيهم : « هرقليتوس » و « ديمقراط » ، ولقد تناول هذان بالبحث ـ بعد المادة الطبيعية ـ احوال النفس البشرية

والشئون السياسية ، وكان هدفهمـــا ورائدهما في جهودهما العنيفة امتحان كل شيء بالعقل والفكر . وكذلك ظهر « انكساجوراس » فجعل يعلم الناس أن الشمس التي يصلون لها صباح مساء انما هي كتلة من النار ملتهبة لا اله يعبد .

ومعلوم أن حركة هؤلاء الفلاسفة في سبيل تحرير العقل مهدت الطريق لعلماء التربية المعروفين بالصوفية او السفسطائية ، الذين اخذوا يظهـــرون في القرن الخامس للميلاد ، والذين وضعوا في النصف الثاني من هذا القرن قواعد وأصولا للحياة الاجتماعية من ناحيتي « الاخلاق والسياسة » وبحثوا في الخطأ والصواب والعقل وقانون التفكير والخطابة وهلم جرا ، ولكن جميع ذلك كان لا يتجاوز الاقلية المطلقة التي هي طبقة المفكرين والعلماء، اما الدهماء والعامة فكانوا في كل مكان أسارى الخرافات والعقائد الضالة ، على أنه لا ينبغي أن نغفل ما كان لأثينا في ذلك العصر من التمتع بحرية الفكر والمنـــاقشة في الشئون السياسية وبخاصة لعهد زعيم نهضتها الحرة « بريكل » الذي كان يحمي أرباب التفكير الحر ، حتى لقد كان حصــــنا للفيلسوف الجاحد لآلهـــة أثينا ، « انكساجوراس » من المحاكمة .

ومن وقائع ذلك الزمن وأحداثه ما يدلنا على أن النزوع الى الخروج على الاديان كان آونة لا ينجو من العقوبة ، وان ما كان ينشر من الكتب في ذلك كان يجمع ويحرق او يحرم بيعه علنـــا ، ولـكن الاضطهادات والتنكيلات المنظمة التي كانت تقام في أوجه المنطقيين Rationalists اللادينيين كادت في أواخر ذلك القرن تختفي ، وذلك

لوفرة عدد هؤلاء واطراد نموهم وتكاثرهم . ولقد كان من القضايا المسلمة لدى الاغريق ، ثم الرومان حتى فى أرقى عصورهم علما ومدنية ومادية ان الدين نافع وضرورى لعامة الشعوب مطلقا ، ولذلك كان يقول بفائدتها ، كركن للسياسة العامة ، حتى من لا يدينون بها ، كما ان فلاسفتهم ما كانوا يقدمون على نشر اية عقيدة او نظرية ، من شأنها احداث اضطراب ما فى الحياة الاجتماعية . ومن الافراد البارزين فى هذا الميدان من الاغريق سقراط ، الذى يعتبر بحق أجل أولئك المربين فكان مما امتاز به وتفرد شديد تعلقه بطريق المناقشة والنقد ، واجتذاب كل من يحادثونه ومن يستمعون اليه، الى طريق استعراض العقائد المعروفة المألوفة ، وامتحانها بمحك الفكر ، مع افساح صدر العقل لكل بحث واحتمال، دون تقيد بشىء من التقاليد ، ولا وقوف عند رغبات الجماهير ، وانما سلك سقراط هذا الطريق فى نشره العلم ، واقتياده شباب زمانه الى وجوه الحقيقة ، ومناهج التفكير الصحيح ، لان بلاد اليونان منذ حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد العيسوى ، كانت ميدان حركة فكرية ، ابتدعها افراد من اليونان ، كانوا فى أول هذه الحركة ، اما مسترزقين او طلاب شهرة وسمعة ، ثم اخذوا يسرفون فى اساليبهم الجدلية وطرائقهم التشكيكية ، غير مبالين ما بصيب العقول من التضليل، ولا حاسبين حسابا لوخيم عواقبها ومنكر نتائجها .

ولقد أكثر هؤلاء من الخلط والتخبط وتجاوز ما بين الحق والباطل وما بين الفضيلة والرذيلة من الحدود . حتى التبس الامر على العقول وخفيت عن بصائرها معالم

العلم الصحيح وحدوده . ولم يتركوا شعبة من شعب التفكير ولا ميدانا من ميادين المعرفة حتى اعملوا فى اساسها واركانها معاول التشكيك لا لعلم يبلغونه ولا لصواب ينشدونه ولكن ضلالا وتضليلا ، وجهلا وتجهيلا ، فلما جاء سقراط ، بما أوتى من العقل الراجح والرأى السديد والعلم الصحيح ، لم يجد بدا أن يخاطب الناس على قدر عقولهم ، ويسلك فى هدايتهم تلك السبل التى سلكها أولئك فى تشكيكهم وتضليلهم ، ولو أنه انتهج فى تعليمهم وارشادهم غير هذه المناهج التى فتنوا واغرموا بها لما استطاع أن يجتذبهم الى طريقه ، أو يبلغ بهم شيئا من مقاصده ، والى عهد سقراط لم تكن التربية العالية من أغراض السياسيين والمفكرين من اليونان .

ومع كون أثينا فى ذلك العصر كانت اشهر البلاد فى الديمقراطية وأكثرها تسامحا وحرية ، نجد التاريخ يسجل لنا ما لا يكاد يصدقه الوهم من الاضطهادات التى كانت تنال المتصدين للدعوة الى حرية الفكر والاحتكام الى العقل .

اشتهر سقراط بطريقته التحاورية ، وبالجدل والتشكيك ، والنقد وعدم التقيد بما عليه الناس اذ ذاك من التقاليد والافكار ، ولكن كان لدى اليونانيين من الروح المعادى لتلك الحياة العقلية الجديدة ما أفضى الى محاربة الفلاسفة (وفى مقدمتهم سقراط) بسائر الوسائل ، ولا سيما الروايات التى وضعوها للسخرية منهم والاستهزاء بهم ، وتصوير مثل سقراط زنديقا غير تقى وداعيا مضرا ، حتى لقد ثارت عليه الامة اليونانية آخر الامر ، واعتبرته ملحدا ومفسدا لعقائد الشباب

وقتلوه سنة ٢٩٩ قبل الميلاد ، لهذه الاسباب ، كما تدل عليه محاكمته ، وما قدمه فى الدفاع عن نفسه ، وقد علمنا من التاريخ انه قدم لدرء ما اتهم به من افساده لعقائد الشباب هذين الدفعين :

١ ــ يجب على كل فرد مهما تكن النتيجة أن يقاوم كل ما يراد عليه مما يراه ظلما ، سواء أصدر عن شخص صاحب نفوذ أم عن محكمة .

٢ ــ ان لا ينزل مطلقا عن القول بأن فى المناقشة الحرة مصلحة للفائدة العامة ، وضمانا للعلم الصحيح .

بعد ذلك بسبعين عاما ، اضطر أرسطو أن يفارق أثينا ايضا ، حذر أن يساق الى ذلك المصير ، لاعتباره فيها ملحدا أيضا .

ولقد جاءنا افلاطون ، انجب تلاميذ سقراط ، فى آخر ايامه بصدمة تراجعت بها الحركة التقدمية لحرية الفكر والمناقشة بعض الشيء ، فانه يرينا فى « المدينة المثالية » انه لابد لأهل المدينة من قبول الدين الذى رسمه هو وصوره ، وان من لا يؤمن به يعاقب بالقتل والسجن ، وان حرية الجدل والحوار معاقب عليهما على النحو الذى وضعه . الخ . على أن تعاليم سقراط فى محادثاته ظلت ينبوعا غزير المادة ، ترعرعت به عدة مذاهب فى الفلسفة ، وصدر عن مرتواه جلة من الفلاسفة المعدودين ، كافلاطون وارسطو واستويقس وامثالهم ، ممن انبثت مذاهبهم فى اطراف بلاد الاغريق منذ ابتداء القرن الثالث قبل الميلاد ، وفتحوا لهذه البلاد مصاريع أبواب الحياة العقلية ، وانعشوا فى اهليها حركة التفكير والتدبر .

ولقد سبقت لنا المامة بما ترك افلاطون وارسطو من

الأثر فى تحرير عقول الاثينيين ، ولكن من المفيد ايضا أن نورد هذا أن ابيقور — على رغم جحوده قيام السلطان الالهى فى هذا الوجود للتدبير والتعريف ونبو بصره عن كل موجود سوى المادة والماديات — قد تخطى بالعقول الخاملة فى اقدامه المدهش السريع عقبات استعصى تخطيها على الاجيال والقرون . ولقد وجد أحد الشعراء من الرومانيين فى فلسفته وحيا والهاما مستطابا أودعه قصيدته المسماة « فى طبيعة الدنيا » .

ولم تكن فلسفة استويقس فى تحرير العقل الانسانى بأقل حظا من المذاهب المذكورة آنفا ، بل الحقيقة انها جاءت منظمة ومفصلة لجملة من القوانين الاجتماعية التى لم يأت سقراط على بيان شىء منها أيام كان يقرر أن القوانين قد تكون غير عدل وأن الناس يجرمون . ولقد كان لفلسفة استويقس أثرها فى الشرائع الرومانية ، فان أساس القانون المدنى فى الامبراطورية الرومانية ، كان ، كما قدمنا سابقا ، اباحة علنية جميع الاديان والجهر بسائر الافكار .

قدمنا أن حرية الدين ، وحرية الجهر بالفكر ، لازمتا الشرائع الرومانية حتى دخلت الديانة المسيحية فى اوربا ، فضربت هنالك حولها نطاق الحجر والحظر ، لما كانت عليه من التقاليد الوثنية .

ابتدأ بها الحجر لأن الرومانيين كانوا يعتبرونها شعبة من اليهودية التى تنافر بطبيعتها التقاليد الوثنية الرومانية ، والتى ما كانت تتمثل لابصارهم سهلة سمحة .

ولشدة نفور الرومانيين منها ، وبغضهم لها ،

وأعتقادهم أبتعادها عن روح التسامح ، أصدر تراجان قانون حكم القتل على من يدين بالنصرانية ، وقد أحاطه بقيود لم تيسر السبيل الى الاسراف فى القتل ، ولكن الإمبراطور بيوكلتيان أراد تأييد دين الحكومة . وتثبيت قدم الحرية التى ألفوها قديما ، فكان ما قرره من تنظيم المذابح فى المسيحيين بكل فظاعة وقسوة . وفى الحق آن الذى دفع ذلك الامبراطور الى هذه الجرائم . أن المسيحية كانت تقبح ما أعتيد من عبادة الرومانيين أباطرتهم ، على حين أن ملوك الرومان كانوا يرون ضرورة أن تخصهم الشعوب بالعبادة ، توحيدا لكلمتهم ، وتعلقا خالصا بعروشهم التى تمثل الامبراطورية جميعها . ولكن بدخول قسطنطين الكبير فى النصرانية دارت الدائرة على العقل ، فكان أول عهده بالاعتقال والاسترقاق . وبعد ان كان رجال المسيحية فى القرنين اللذين سبقا ذلك ينادون بأن التسامح الدينى واجب ، وان العقائد ليست مما يلزم به الانسان جبرا ، فتنوا بدخول قسطنطين فى النصرانية ، وانقلب الأمر رأسا على عقب ، فكان الحكام والملوك ، لأسباب سياسية غالبا ، كما كانت الطوائف المختلفة لما بينها من الاختلافات المذهبية ، يوقدون نيران الفتن ، ويقيمون المذابح المروعة هنا وهناك ، حتى سلب من الدنيا الامن والسلام ، وفقدت الانفس الراحة والطمأنينة . ولقد كان من تعاليمهم أن النجاة لا تكون الا بقبول المسيحية ، وأن من لا يقبلها لا ينجيه فداء من عذاب الدنيا ، ولا عذاب الآخرة ، مهما بلغت من الفضائل ، ومهما يقدم من الخيرات والحسنات ، وانه اذا مات

الطفل قبل التعميد فانه فى الآخرة يمشى على بطنه فى ارض جهنم أبد الآبدين .

ومن اقـدس رجالهم (سانت اوغسطين) الذى مات سنة ٤٣٠ ميلادية ، فانه وضع نظام اضطهاده من لا يقبل النصرانية ، واستمر ذلك من بعده متبعا الى القرن الثانى عشر ، وكلما حدثت بين النصارى بدعة أو عقيدة تقلل من دخل الكنيسة ، اشتد القساوسة على أصحابها وغلوا فى ايذائهم والتنكيل بهم .

ولقد أمر البابا أنوسنت الثالث « كونت تولوز » ، أن يستأصل طائفة من رعاياه ذات بدعة مذهبية ، فلما لم يطع أمره اقام عليـــه حربا صليبية كادت تفنى قومه ، وفيها صودرت أملاك ذلك الكونت ، وكسرت شوكته ، ولم يصـــالحه البابا الا على شرط استئصال آثار ذلك المذهب من ملكه .

كذلك أقيم نظام التفتيش فى المنازل وغيرها للبحث عن الملحدين سنة ١٢٣٣ ميلادية ، وتم تنظيمه لعهد أنوسنت الرابع سنة ١٢٥٢ وأدخل فى ســـائر المدن والممالك النصرانية ، وعين لذلك المفتشون من القساوسة ، ومنحوا من قبل البابوات السيطرة المطلقة غير مسئولين عن شىء يفعلونه ، وساعدهم على ذلك ما وضعه الأباطرة لعقاب الملحدين من القوانين القاسية الجائرة .

ومع كون فريدريك الثانى الكبير كان حر الفكر ، أصدر أمرا يقضى بأن كل من ينكر أو يبتدع شيئا فى النصرانية يعتبر خارجا ، ويحرق منهم من لم يتب ، ويحبس من تاب ، ومن ارتد قتل ،وتصـــادر املاك الجميع وتدمر بيوتهم ، وكذلك أطفالهم لا يستحقون الرحمـة ، لا هم

ولا انسالهم ، الا اذا أخبروا عن ملحدين أو مبتدعين ولو كانوا آباءهم . وقد جعل فريدريك (الخازوف) عقوبة الالحاد والابتداع ، وطبق ذلك الامر فى ايطاليا والمانيا خلال ١٥ عاما (١٢٢٠ ـ ١٢٣٥ م) ثم عمم نظام التفتيش فى غرب اوربا · ولعهد هنرى الرابع والخامس عوقب الالحاد بالخازوق فى انجلترا بقانون أصدر سنة ١٤٠٠ ونسخ سنة ١٥٣٣ ، ثم اعيد لعهد الملك مارى ، ونسخ نهائيا عام ١٦٧٦ ·

واستمر تطبيق هذه القوانين على المسلمين واليهود ، بأفظع الطرق الوحشية ، ولم تنسخ الا فى القرن التاسع عشر ، وكانت خلال ذلك تطبق بوحشية على من حملتهم على الردة من البيوتات الاسلامية واليهودية . وبالجملة فقد كانت القاعدة التى بنى عليها نظام التفتيش « خير أن يقتل مائة أبرياء من أن يلحد فرد واحد » وبهذه القاعدة صاروا يقتلون ويحرقون لأقل شبهة ، ولم يكن لأحد حق الدفاع عن نفسه ، ولا كان لمحكمة أن تقبل فى حال ما شاهد نفى .

وكما فعل بمخالفى العقيدة النصرانية ، كذلك فعل بطوائف السحرة ، فمن ذلك أن البابا « أنوسنت الثامن » نشر فى سنة ١٨٨٤ بلاغا يؤكد فيه أن الطاعون والعواصف من عمل السحرة ، فتتبعوهم فى كل مكان فاتكين بهم الفتك الذريع ، وبخاصة فى انجلترا واسكوتلانده .

***

وفى أواخر القرن الثانى عشر جاء للعقول قبس من دنيا اخرى ليفك عنها اغلالها وسلاسلها ، اذ اخذت فلسفة ارسطو بواسطة العرب تبسط نفوذها فى غرب اوربا ،

ولقد كان لابن رشد وأمثاله حظ كبير فى تحرير عقول أهل أوربا ، كما نالهم كثير من مناهضة البابوات لتعاليمهم ، فاننا نجد البابا يوحنا الحادى عشر ، يقبح تعاليم ابن رشد ، ويحكم بضرر وجودها ونشرها ، كما أن القس توماس قسيس أكوينو بجنوب ايطاليا سنة ١٢٧٤ ، قام فأسس للكنيسة فلسفة ازاء فلسفة أرسطو والعرب ، وهذه لا تزال تتمسك بها الكنيسة الرومانية . والحقيقة أن فلسفته ما كان من شأنها تثبيت العقول البشرية على قرار ، بل انها فى أغلب المواطن كانت تتركها كريشة فى مهب الرياح ساقطة لا تستقر على حال من القلق .

وقد أجمع المؤرخون على أن الحركة الفكرية ، والنهضة العلمية ، دخلتا أوربا فيما حول القرن الثانى عشر الميلادى من طريقين : أحدهما الاحتكاك الذى ظل نحو قرنين مستمرا بين أمم أوربا والشرق الاسلامى خلال الحروب الصليبية ، والآخر طريق المعاهد العلمية التى أقامها العرب فى الاندلس ونابولى وجزيرة صقلية . والمحققون من المؤرخين يقررون أن من بدىء بهم تاريخ النهضة العلمية فى أوربا — كروجر بيكون وأمثاله — كانوا من الواقفين على اللغة العربية وعلى اللغة اللاتينية التى كانت تنقل اليها علوم العرب ومباحثهم فى كل فن . واذا انتحل هؤلاء أو عزى اليهم بعض الابتكارات ، فانما سبب ذلك ما تعمدوه غالبا من اغفال المصادر التى أخذوا عنها ، حتى لقد رجح أئمة التاريخ أن روجر بيكون الراهب الانجليزى الذى يعزو اليه الفرنجة ابتكار العدسات والنظارات ، انما أخذ هذا عن الحسن بن الهيثم ، صاحب

المباحث العظيمة فى الطبيعيات ، ولا سيما الضوء والبصريات . فمجاورة أهل أوربا لاهل القرآن الذى حرر العقول ، واقام صروح العلوم ، وزين الدنيا بجميل الفنون ، هى التى فتقت بصائرهم ، وكشفت عن حديد ابصارهم أغشية الجهالة ، التى حجبتهم عن أنوار الهداية أدهارا طويلة . ولو أن هؤلاء الغربيين وقفوا من العقل الانسانى موقف اهل القرآن من كل وجه ، لما تأخرت نهضتهم الفكرية الصادقة عن ذلك الوقت الذى اتصلوا فيه بالمدنية العربية وحرية الفكر الاسلامية ، ولكن كان لسلطان رجال الدين فى تلك العصور ، واسترقاقهم لعقل الدنيا المسيحية خلالها ، ما قاوم تقدمهما واضعف تأثيرهما . فلقد وجهوا الفلسفة الواغلة فيهم الى المناحى الدينية ، وقصروها على المباحث الكنسية ، وبذلك صرفوها عن وجودها الاصلية ، وقصدوا بها الى غير غاياتها الطبيعية .

ومع أن المرسوم الذى أصدرته الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٥٢٩ م ، قاضيا بوجوب الانصراف عن جميع المجادلات ، والا تفسر التوراة والأناجيل الا بما تقرره الكنيسة ، قد أغضب كثيرا من الأمم النصرانية ، وبرغم أن هذا القرار فى الواقع كان من أهم أسباب ولادة المذهب البروتستنتى ، فان لوثر صاحب هذا المذهب لم يلبث ان قرر أن للحكومة حق اجبار الشعب على قبول ما رأى أنه العقيدة الصحيحة ، وأن لها استئصال الملحدين المنكرين لها .

بذلك الكيد المبيد للعقل الانسانى والغدر الأثيم به ، لم تقو الحركة الفكرية على المضى فى سبيل حريتها ،

والظهور على ما كان يبيت لها رجال الدين من الحروب الشعواء ، حتى كانت أواخر القرن السادس عشر ، حينما ظهر فرنسيز بيكون الفيلسوف الانجليزى بحملاته العنيفة ، على الفلسفة الدينية ، مصدعا بمعاوله صروحها الشامخة الرهيبة ، داعيا الناس الى تحرير العقول ، ومعالجة المسائل العلمية بأساليبه الجديدة التى وضعها ، واقتاد الباحثين اليها ، فبدأ بذلك عهد التجديد العلمى، والتحرير العقلى ، الذى لا تزال المشارق والمغارب حتى اليوم تنعم بشهى ثماره الدانية القطوف .

عهد التحرير العقلى

يبتدىء تاريخ العهد الجديد بأوربا ، كما هو معلوم ، عام ١٥٤٣ م ، ذلك حينما نشر كتاب كوبر نيقوس الذى يثبت به دورة الارض حول الشمس ، ثم زاد غاليليو بواسطة تلسكوبه اثبات أقمار المريخ ، واثبات دورة الارض حول نفسها ، مستدلا على ذلك بالبقع المظلمة التى رآها فى جسم الشمس ، فبماذا قابلته الكنيسة ؟ لقد قرر المجمع المقدس فى فبراير سنة ١٦١٦ أن مذهب كوبر نيقوس سخيف ، وبمقارنته بما جاء فى الوصية (وصية المسيح) يعد هرطقة • ولقد حرمت رومه تعليم نظام المجموعة الشمسية الى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر . وقد أربك هذا التحريم دراسة العلوم الطبيعية فى ايطاليا . وكذلك أقام البابا الكسندر الرقابة على المطبعة سنة ١٥١٠ ، كيلا تنشر ما لا نرضاه البابوية من الافكار الحرة ، ولو كانت حقائق علمية ثابتة . وفى

فرنسا كان الملك هنرى الثانى يعاقب بالقتل كل من يطبع شيئا بدون ترخيص . والحقيقة أن الطبع لم يصر حرا فى القرن التاسع عشر ، وهو العصر الذى ضعفت فيه سيطرة الكنيسة ، وقويت شوكة الملوك والامراء المدنية ، وسادت النظم والقوانين الدستورية ، ولما تأسست الجمهورية الديمقراطية فى فرنسا (١٧٩٢ م) أعيد وايد القانون القاضى بعدم الاعتراف بالسلطة البابوية ، ولكن وجدت بجانب ذلك حركة شديدة ضد الكنائس ، اذ امرت حكومة باريس باغلاق سائر المعابد بلا تفرقة ولا استثناء ، مستعملة فى ذلك القوة القاهرة والصرامة الماضية ، ولكن حينما جاء روبسبير على رأس الحكومة قرر أن يكون دين الحكومة عبادة العلى الكبير (ابريل سنة ١٧٩٥) ، وبعد قليل احدث دين وضعى جديد ، يسمى دين الفطر ، وهو دين فلاسفة ذلك القرن ودين شعرائه ، مثل فولتير ، وقواعده هى القول بالله ، وخلود النفس ، والاخوة الانسانية (الرحمة) والا تهاجم هذه الديانة غيرها من الاديان والمذاهب ، ويسمى هذا الدين الجديد دين محبة الله Theophilanthropy ولما كان عام ١٨٠١ جاء نابليون فقلب هذا الدين رأسا لعقب ، واظهر البابوية ثانية فى الميدان ، ولم يكن يقصد من ذلك الا الانتفاع بالسلطة الروحانية ، والاستفادة منها فى حروبه المستقبلة ، وتوسيع امبراطوريته فى عالم الكثلكة .

وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، زلزلت عقيدة جماعات من المسيحيين ، لما كان يذاع اذ ذاك من ان فى التوراة والأناجيل من التضارب والتنافر ما لا تقوى العقول على قبوله . فتفشى بذلك انكار الوحى ، وسادت

المناقشات العلمية هنا وهناك . وفى القرن التاسع عشر انتظمت الحملات على التقاليد القديمة ، فاجتثت كثيرا من أصولها ، وان يكن علماء تلك العصور اختلفوا فيما بينهم بعض الشيء ، فمنهم من أنكرها بتاتا واعتبرها غير معقولة وسخيفة ، ومنهم من لم يصل الى هذا الحد الغشوم . فبسكال الفرنسى كان من المؤمنين بها ، وبيكون الانجليزى كان يعلن اللاهوتية وان يكن مضمرا الالحاد . وهناك ديكارت كان من ناحية أخرى يحاول أن يوفق بين العقل والكنيسة .

ولقد نقتفى فى بعض الآونة أثر تغلب العقل على الكنيسة ، فى معاملة السحرة ، فاننا بعد أن رأينا كيف كان جيمس الاول ، عملا بآية الانجيل « لا تبقوا على حياة السحرة » Than shalt not suffer Them to live يطارد هؤلاء بكل صرامة وغلظة ، نشهد فى أواخر أحداث عام ١٧١٢ كيف اعتبر المحلفون الساحرة (جان ونهام) من أهالى هرتفورد شير مجرمة تستحق عقوبة القتل ، فرفض القاضى قولهم وبرأها غير متأثر بتعاليم الكنيسة ، ولا متقيد بالتقاليد السائدة اذ ذاك .

ولقد نسخ هذا القانون نسخا سنة ١٧٣٥ ، ولكن فى سنة ١٧٥٢ حكمت محاكم اسكوتلاندة باحراق امرأة ساحرة .

ومن المذاهب الجديرة بالذكر ، ما أحدثه فى هولندا فيلسوف يهودى اسمه (سبينوزا) وأعلنه الى الناس عندما حل عقال الفكر ، وألقى حبله على غاربه . وعقيدته أن هناك الها ليس قائما بذاته ، وانه ليس للانسان ارادة حرة ، وان القول بالعلة الاولى أو علة العلل خرافة ،

وبعبارة اخرى كان يقول كما هو الظاهر بوحدة الموجود . او وحدة الوجود ، ولابد أن يلاحظ أن هذه الكلمة كانت في القرنين السابع عشر والثامن عشر رمزا الى صاحب الفكر الحر ، فكانت عبارة مقت وتكفير الا فيما ورد منها في بعض الكتب الدقيقة ، ولكن الحقيقة ان الذين سموا اذ ذاك بذلك الاسم لم يكونوا الا الهيين ، بيد أنهم ينكرون الوحى فقط .

ومن معاصريه (اوك) ومغزى كتابه الذى وضعه سنة ١٦٩٠ أن العلم جميعه ليس الا نتيجة التجارب ، وقد أخضع الاعتقاد فى جميع أحواله للحكم العقلى ، وقرر رفض ما يخالف الحكم العقلى من الوحى ، لأن الوحى لا يعطى علما صحيحا كالذى يعطيه النظر العقلى ، وقد وضع كتابا فى موافقة النصرانية للعقل . ولقد حذا هذا الحذو معاصره « بايل » الذى وضع بعد نفيه من فرنسا الى هولند كتابه « القاموس الفلسفى **Phylosophical Dictionary** ومن كلامه أن فضيلة الاعتقاد تنحصر فى الايمان بقدرة الله وسلطانه وحده ، **ويقول انه يستحيل** أن يتصور الالهيون تطبيق صفات الارثوذكس على الاله الذى ثبت بالعقل وجوده . ولما قبل فريق من الارثوذكس تحكيم العقل ضـــــلوا ، وسقط منهم كثير فى هاوية الالحاد . وقد تطابق الالهيون و (سبينوزا) فى القول بأن الكتب السماوية تفسر كغيرها من الكتب .

ولقد ظلت أفكار الالهيين خفية مكتومة الى سنة ١٦٨٥م حين ابطلت قوانين المطبوعات ، فابتدات اذ ذاك تظهر بعض الظهور ، برغم ما كان أمامها من العقبـــات الادارية الاخرى ، وهى :

١ ـ انه كان لرجال الدين حبس كل من يطعن فى المسيحية ، أو يظهر آراء تخالف ما لديهم من تقاليدها ، أو يأتى بالحاد ، أو سب للمسيح .

٢ ـ ترجمة القانون العام سنة ١٦٧٦ (ترجمة قاضى القضاة هيل فى قضية رجل يدعى تيلر) القاضية بأن أى عمل أو قول أو رأى يخالف تعاليم الكنيسة ، يعتبر مخالفا للقانون العام ، اذ النصرانية ركن من أركان القانون العام الانجليزى .

٣ ـ صدر قانون عام ١٦٩٨ يقضى بأن كل نابت فى النصرانية لا يجوز له أن يعلن مخالفته لأصول الكنيسة وتعاليمها ، ومن يفعل ذلك يعاقب لأول مرة بالحرمان من الخدمة فى الوظائف العمومية ، وفى الثانية يحرم من الحقوق المدنية العامة من حبسه ثلاث سنوات .

***

ولقد تولى فولتير ، وروسو ، فى القرن السابع عشر قيادة حركة تحرير الفكر . وللأخير يعزى كتاب «اميل» الذى أحرق علنا فى باريس وصدر أمر الحكومة بالقبض على مؤلفه فما وسعه غير صدر فردريك ملك بروسيا ، ولكن رجال الدين هناك ما زالوا يضـــيقون الارض عليه حتى اضطروه الى مفارقة بروسيا . ولقد كان لروسو أعظم تأثير فى الحياة الاجتماعية ، بعد الذى نشر من نظرياته الاشتراكية فى كتابه « العقـــد الاجتماعى » Social Contract الذى أحرق علنا فى جنيف .

وفى سنة ١٧٧٠ فوجىء القراء الفرنسيون بالدهشة يوم ظهر كتاب البارون دى هولباخ « نظـــام الطبيعة » System of nature الذى أنكر فيه وجود الله وخلود

الروح ، وقد انتشرت فى القرن الثامن عشر حركة الالحاد وحرية الفكر رغم مطاردة زعماء هذه الحركة واضطهادهم . على أن ذلك استمر الى ما بعد هذا القرن ، فقد حوكم كارلايل سنة ١٨١٩ ، وسجن ثلاث سنوات عندما نشر كتابه (عصر العقل age of reason) ثم قدمت امرأته وبنته وكثير من بائعى الكتب للمحاكمة بسبب ذلك الكتاب .

***

وفى أواسط القرن الثامن عشر ، ابتدأت حركة الحرية الفكرية ، بعد اذ كانت العقول هنالك مكبلة مغلولة ، وبعد ان رأينا كيف نفى أبو فردريك ملك بروسيا الفيلسوف وولف ، لمجرد أنه مدح ديانة كونفشيوس الصينية ، وما كان لأحد فى رأيه أن يمدح دينا غير النصرانية . وبعد ذلك جاء ابنه على أثره بالتسامح الذى جعل أرضه موئلا ومعاذا لسائر المضطهدين والمطاردين من البلاد الاخرى . ثم جاء شكسبير وغوتة بما قدما لعالم الادب، فخطوا بالعالم فى حرية الفكر خطواتهما الواسعة . وقد زلزل الثقلين (كانت الفيلسوف) اذ بين فى كتابه (نقد العقل الصحيح critic of pure reason بطلان الاستدلال على وجود الله بهذه الكائنات ، وبطلان الادلة التى أقيمت على خلود الروح ، وادعى ان لا مصدر للعلم سوى التجارب ، وان يكن فى آخر امر وضع كتابا آخر روحه الهية ، وذلك حرصا منه على الاخلاق فى الشعب التى هى ميزان الحياة الاجتماعية ، والتى لا سبيل الى اصلاحها وتقويمها فيما ارتأى سوى أن تصبغ بصبغة روحانية ، وتسند الى مصادر سماوية .

مما تقدم يفهم أن العلوم العصرية فى البلاد الغربية ترجع الى القرن السادس عشر ، الذى شهد ثبوت نظرية كوبرنيقوس ، وشهد القوة المركزية الجاذبة ، ونظـــام الدورة الدموية ، والقواعد الحديثة للكيمياء والطبيعة ، كما شهد معرفة كنه الكواكب والشهب وكيفية تولدها . ولكن هذه المكتشفات ظلت الى القرن التاسع عشر لا تفسر المسائل الكونية الغامضة ، التى وردت فى كتب العهدين الا بدرجة محدودة ، بيد انها مع ذلك قادت الافكار الى البحث فى الروايات التاريخية ، التى جاءت بها، كطوفان نوح وسفر التكوين . فلقد جاء لابلاس فى أوائله كما قدمنا ، فقرر أن ابحاثه تفضى الى رفض نظرية وجـود الخالق ، ثم تقدمت مباحث علم الجيـولوجيا ، وجاءت بفروض ناطقة بما يناقض فى الجملة سفر التكوين وقصة الطوفان .

وفى عام ١٨٦٣ أوضح الاستاذ ليبل الفرنسى Lyell فى كتابه « قدم الانسان » ان الانسان سكن الارض قبل العصر الذى عينته التوراة بأزمان مترامية فى القدم ، ولكنه رأى امكان الجمع بينهما باعتبار اليوم الذى جاء فى التوراة طويلا جدا ، لا كأيامنا المألوفة ، واعترض عليه بأن هذا لا يمكن تطبيقه على الايام التى خلق فيهـــا الانسان ، فان التوراة تفيد انها كانت كأيامنا .

وقد زعم الفلاسفة المحدثون أن علم الجيولوجيا زعزع أركان الاناجيل ، ولكنها تركت بابا للقول بوجود النوع البشرى « قبل التاريخ » وما زالوا على هذا المذهب حتى جاء علم الحيـوان ، مبينا أصل الانسان ، فطبقوا على البشر قانون النشوء والارتقاء ، وســـائر النواميس

الطبيعية ، وكاد يعتبر هذا من الحقائق الثابتة منذ ظهر كتاب دارون أصل الاجناس **Origin of Species** عام ١٨٩٥ .

وازدادت الثورة الفكرية ، وتأججت نيران الجدل عندما ظهر في عام ١٨٧١ كتاب دارون منشأ الانسان **The Descent of man** بين الدينيين وغير الدينيين ، حتى لقد يؤثر عن غلادستون في تلك الآونة قوله : « اذا قلنا بنظرية النشوء والارتقاء تكون وظيفة الاله باعتباره خالقا قد انتهت ، ولو سلم القول بعدم تغيير القوانين الكونية ، وانها قارة خالدة على حالة واحدة لأصبحت حكومة الرب في العالم مما لا حاجة اليه » . واذا أردنا ان نعرف مركز العقل ، ومدى حرية الفكر في البلاد الغربية ، غير الاسلامية ، حتى في أواسط القرن الاخير ، فحسبي ان اقتبس كيف صور المؤرخون بلاغا اذاعه أحد الكرادلة من الانجليز اذ يقولون :

« في سنة ١٨٦٤ ادهش الكردينال مانج الانجليزى عالم النصرانية ببلاغ يقول فيه : ان لكل انسان أن يعتقد ما يراه بنظره صحيحا ، وانه ليس للكنيسة حق الاكراه على العقائد ، وان علم ما وراء الطبيعة يمكن بل يجب الا يتقيد بالوحي ، ولا برغائب الكنيسة ، وان للكاثوليكيين حق دعوة من يشاءون من مهاجرى الملل الاخرى ، وان لهؤلاء أن يقيموا صلواتهم جهرة ، وانه يجب على البابا ان يقيم في سلام مع الرقي العلمي والحرية والمدنية » .

فلنتظر كيف اعتبر المؤرخون نشر ذلك البلاغ من الاحداث الكبرى التي ادهشت عالم النصرانية ، مع انه

عند التدبر لم يأت بأكثر مما عرفه العالم الاسلامى ، وألفه منذ أشرق نور القرآن على القلوب ، وتجلت تعاليمه الفطرية على العالم الانسانى ، تفرض التفكير ، وتقبح التقليد ، وترفع الحجر عن العقول .

مما أسلفنا نعلم ما كان بين الفكر البشرى ، وبين ملل الغرب ، من الجدل العنيف ، والصراع الدائم فى العصور العديدة ، حتى كاد ينتهى النصر فى العاقبة للعقل ، ويكتب الغلب لحرية الفكر .

وانما قلنا (كاد) لاننا لا نزال نرى فى بعض ممالك أوربا ، وفى أمريكا الجديدة ، أقواما لا ينفكون ينصرون القديم ، ويفضلون الجمود على ما كان عليه الاولون ، ولو عارض المشهودات العينية ، وناقض الحجج المنطقية . وهل نسى أحد منا كيف عاملت فى العام الفارط احدى جامعات أمريكا كبيرا من أساتذتها ، لترويجه مذهب دارون ، يوم قامت من حوله ضجة وعجة ، لم يخفت لها صوت ، حتى انتهت بفصله عن كرسيه فى تلك الجامعة .

الحرية فى الشرق الاقصى

حسبنا تلك النبذة الموجزة لتصوير ما كان عليه العقل البشرى فى الغرب ، من الازمات التى احتمل ما لا يوصف من آلامها وشرورها أدهارا طوالا فى سبيل حريته واستقلاله . والآن الم المامة خفيفة بما كان عليه العقل فى الشرق الاقصى فى ذلك الوقت الذى انتعشت فيه الحركة الفكرية ببلاد الاغريق ، اى فيما حول القرن

الخامس قبل الميلاد فأقول : بينما قام فى الشرق الادنى اكسينوفانيس فهاجم آلهة اليونان ممطرا اياها وابلا من التهكم والســـــخرية ، داعيا الناس الى ترك عبادتهـا والزراية بسخافاتها، وبينما كان هيركيلتوس وديموقريتوس يعالجان العقـــــول البشرية لتحريرها من أسر التقليد الجاهلى ، واجتذابها الى حظيرة التفــكير فى ملكوت السموات والارض ، نجد فى الطرف الآخر من الشرق مثل تلك الحركة العقلية والنفسية ، تنبه الهمم الخامدة وتقتاد الشعوب الضالة الجـــاهلة ، فى سبيل التفكير والبحث عما فيه صلاح حياتهم الاجتماعية : ففى الهند يظهر بوذا بتعاليمه ، وفى الصين يحارب كونفشيوس ما كان فى قومه وحكام عصره من التفاوت فى الطبقات، والنزوع الى الفــوضى السياسية والاجتماعية ، ويهذب ما كان يرى فى أمراء زمنه من القسوة والفلظة والجور واستعباد الناس .

ومما يلاحظ هنا أن الشرقين ، وان اتحدا أو تقاربا فى زمن نهوضهما ذلك ، فقد تشابها فى كنه تلك النهضة وطبيعتها ، الا انها كانت فى الهند أشد عناية بتهذيب النفس ، وتطهيرها من أدران الاخلاق الفاسدة منها بغيرها من الشئون العامة المادية ، كما أن النهضة الكنفوشيوسية فى الصين كان هدفها وضع النظم وتقرير الدساتير لضبط الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والمظاهر المادية .

كما جاء رجال الدين فى الشرق الادنى والبلاد الفربية بما بسطنا سالفا من البدع والمظالم والمفارم والطقوس العبادية ، والعقائد التى ارهقت العبــــاد ، وأزهقت الارواح ، واستمادت استعباد العقول ، وجعلت القرون الوسطى شر القرون وأشـــقاها ، كذلك فعــل زملاؤهم

فى الصين والهند وما حولهما مثل ما فعلوا ، فكان من حكمة العليم الحكيم ، ورحمة الرفيق الرحيم ، أن يشرق على عباده وخلائقه الحائرين فى ظلمات الضلالة ، الهائمين فى أودية الجهـــالة ، ليفك أغـلال عقـــولهم ، ويرفع منزلة نفوسهم ، ويكلهم الى وحيه المنقذ لا الى تجاريبهم العاثرة ، وأن يقيهم مصارع المجالدات والمصادمات التى فنيت فيها الملايين من طلاب الحرية والمساواة والعـدل من أصحاب الملل والنحل الاخرى .

القرآن والحرية

شاء جلت حكمته ذلك فكتب أن يرسل القرآن بدين الفطرة ، ليحرر بأوامره القدسية النفوس المغلولة ، وينجى من معاثر الجهالة العقول الضالة .

وسيتبين مما أقصه كيف سار القرآن الكريم بالعقل البشرى فى سبيل الحرية ، وأين حل بالعقل من المنازل العلية . بيد أنه يجمل أن ننتهز هذه الفرصة لنناقش ما قد يجيش بخلد البعض من أنه اذا كان دين القرآن هو دين الفطرة ، واذا كان مقياس صحة الاحكام فى نظر القرآن هو العقل والمنطق . فماذا عسى أن تكون فائدة الدين ؟ ولماذا لا يترك العقل البشرى يجاهد وحده فى سبيل الحق والحقائق ، حتى يبلغهما ، وينقب عن الخير والشر والنافع والضـــار ، حتى يفقه كنهها ، ويدرك حدودها ، ويعلم ما بينها من الفوارق والميزات ؟

الى أمثال هؤلاء نقول ان من الممكن أن تصل العقول البشرية بالبحث والتنقيب والتجارب الى ما تصبو اليه

النفس الانسانية ، من مراتب الكمال فى الاحكام ، والتصورات والنظم الاجتماعية ، والمسائل العلمية والآداب الخلقية ، ولكن فى سبيل ذلك عقبتان لابد من تسنمهما حتى تتحقق مثل تلك الامنية : احداهما عادية والاخرى طبيعية .

فأما الاولى فهى ضرورية انسلاخ عدة من القرون فى التجارب والبحوث التى يقتضيها الوصول الى ما تنشده النفس البشرية من وجوه الصواب المطابقة للمصلحة .

واما الثانية فهى ناموس النشوء والارتقاء ، أو التطور التدرجي الذى بالاعتماد عليه وحده فى عالم المعقولات والمعنويات ، لا يمكن أن يصل العقل البشرى الى مرحلة، حتى يكون قطع ما قبلها من المراحل .

على ان ثمة عوامل تكتنف سير العقل فى أحكامه وابحاثه ، وكثيرا ما تقوم منها العواثير التى قلما ينجو معها من السقوط والزلل . وأهم تلك العوامل الانفعالات النفسية ، والاضطرابات العصبية ، التى لا يجهل أحد منا آثارها فى شعب الحياة الاجتماعية والعقلية والادبية. ومن المغالطة أن نبرىء أنفسنا أو ندعى بلوغ الكمال فى شيء من أفكارنا وأحكامنا وعواطفنا ، ما دمنا نجمع بين جنوبنا نفوسا جامحة ، الى قلوب متقلبة ، الى شهوات مطاعة ، الى هوى متبع .

فالدين فيما أراد منزله جل شأنه ضرورى لأصحاب تلك الأهواء المتقلبة والنفوس الجامحة .

لذلك ، وللسلوك بالناس أقصر طريق واقومه واسلمه، يرسل الخالق صفوة خلقه بالهدى ودين الحق رحمة بعباده أن تزل اقدامهم ، وتضل احلامهم ، وتفتنهم

اهواؤهم ، وتضييع مئات السنين أو آلافها فى البحث عما تصبو اليه نفوسهم من العلم والحـــرية والمساواة والعدل ، وسائر الفضائل والكمالات .

***

جاء القرآن بدين الفطرة فى كل شىء ، فطابقت قواعد احـكامه وأصـول آدابه وشرائعه ، مقتضيات الفطرة البشرية ، حتى لقد كان من أمهات أصوله فيمـــا هو خاضع لتأثير المؤثرات ، وعرضة لتعاقب التطورات ، أن يكون العرف فى كل أمة مقياس تقديرها ، ومن هنا كان لابد أن تختلف المسائل الفرعية باختلاف الازمنة والامكنة والعرف الخاص فى الشعوب والاقوام المختلفة ، وبذلك طابق القرآن مطالب العقل ، غير متنكر لما فطرت عليـه طبيعته ، ولا متجاهل مبلغ سلطانه وآثاره فى الحياة الاجتماعية بجميع شعبها .

عرف القرآن ان الانسان مفطور ، منذ بدأ احساسه وشـــعوره ، على البحث عن علل ما تدركه حواسه من الاحداث والكائنات ، فزاد تلك الغريزة تنشيطا وانعاشا، وما انفك يقرع الجامدين على المنقولات ، المحصورين فى مضايق التقليد ، فلا يكاد يخلو له مقام من دعوة الى تدبر وتفكير ، ولا تنفرد له مجادلة عن حجة يقيمها على الخصم ، أو برهان يحاكمه به اليه .

لم يـكن من منافرات العقل ان يأتى القرآن فيدعو الناس الى الايمان بالرسل والانبياء ، والاخذ بما كلفوا تبليغه من الاحكام والشرائع والآداب والفضائل ، فان ذلك للمتدبر من مقتضيات العقـل وطبيعته . فمن ذلك أن

العقل مفطور على الشعور بالحاجة الى ما يدفع عادية الافراد والجماعات بعضهم على بعض « ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الارض .. الخ » كذلك هو مسوق بغريزته الى أن يضع أو يقبل كل ما يرى فيه ضمانا لنظام الحياة الاجتماعية فى العالم الانسانى ، وبما أن عقل الانسان معرض للافلاس والزلل فى معالجة الشعب التشريعية والادبية والعلمية ، على ما بسطناه فى محاضرة أخرى ، كان بطبيعة الحـــال ميـالا الى الطمأنينة ، والسكون الى من يثق به ، والى قبــول ما يكفيه عناء البحث والتنقيب ، ويقيه المغامرات التى تستلزمها الظنون والتجاريب ، شاخصا الى وحى ينزله المحيط بما عليه البشر من الفطر والغرائز والطبـاع ، العليم بما فيه صلاح شأنه واسعاد حياته ، وان حرص الانسان بفطرته على التماس أقصى الطـرق المؤدية الى ما ينشده من الرغائب والكمالات ليدفعه الى طلب القدرة التى تسكن اليها نفسه ، وتقبل ما يصدر عنها من الاقوال الحكيمة ، والنصـــائح القويمة وهذا هو سر اندفاع العامة ، وأكثر الخاصة ، الى الاعتقاد فى أفراد من النـاس يرجون أن يبلغوا بهم منازل الكمال ، ويعيشوا بهديهم فى سعادة وسلام من الانبياء والرسل ، وممن على قدمهم من الدعاة . وانما طبع الانسان على ذلك لأنه يكره أن يتدرج فى تعرف الفضـــائل وطلابها تدرجا قد لا يدرك فى غضونه صواب أمره أو لا يضــمن سلامة سبيله ، فهو حذر الوقوع فيما يخشى عواقبه من شتى الاعمال والتصرفات والاحكام يميل بفطـــــرته الى الاصاخة والاستماع الى المبشرين والمنذرين من الدعاة عسى أن

يجد فيما يدعونه اليه ضالته المنشودة التى يصبو اليها، وقلما عرف لها سبيلا اذا ترك هو وشأنه .

فالانسان بفطرته السليمة وعقله الحر ، مدفوع الى الطمأنينة ، والاعتقاد فيمن يسلك به سبل السلامة ، من الخطأ والخطل والزلل ، حذر أن يفوت عليه جهله وضلال فكره ومعوج سعيه بعض ما تصبو اليه نفسه من طيبات الرغائب وجميلات المطالب ، وبمقتضى هذه الفطرة أقيمت المدارس والجمعيات التهذيبية ورجال المذاهب الصوفية وانكب الناس عليها من جميع الطبقات ، ومختلف الاسنان فى سائر الازمان .

القرآن يخاطب العقل

تقدم أن القرآن لم يذر وسيلة موصلة الى انعاش العقل وتحرير الفكر الا تذرع بها ، فهو اذا تحاكم فالى العقل ، واذا حاج فبحكم العقل ، واذا سخط فعلى معطلى العقل، واذا رضى فعن أولى العقل .

جادل القرآن من جادل من أرباب الملل والنحل ، والماديين والدهريين، فما قارعهم الا بالبرهان ، ولا دعاهم الا الى البحث والنظر ... من ذلك آية « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » . وكم من آية قرع فيها أولئك الضالين لالغائهم عقولهم أو لاحتباسهم اياها على ما وجدوا عليه آباءهم ، ولو جيئوا بأهدى منه كما فى آية « واذا قيل

لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » .

ومن الآيات التى هزمت أشياع التقليد ، المعطلين لعقولهم فى كل زمان ومكان شر هزيمة ، قوله تعالى فى الآيات « ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » و « منهم من ينظر اليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » .

ولا تكاد تمر بك آية فى المجادلات الا وهى مختومة بمثل « بل أكثرهم لا يعلمون » . « قليلا ما تذكرون » . « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » . « انى يؤفكون » « لو تشعرون » . « أفلا تسمعون » . « انما يتذكر أولو الالباب » وهلم جرا .

وقف القرآن الكريم فى جميع مقاماته ، لدى ما اقتضته طبيعة الدين الذى جاء به ، فاذا دعا الى عقيدة ، أو ركن من أركان الدين ، تجافى عن الالزامات التى لا تحيط بها العقول ولا تدركها الافهام . وكلما هم بتلقين أصل من اصوله ، بدأ بالمقدمات النظرية ، ثم ينتهى بالتحذير من حجودها عنادا وكفرا وذلك كما يقول فى آية « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة » وآية « لكيلا يكون للناس على الله حجة » .

ولم يكن منزل القرآن جلت حكمته ، وهو خالق الانسان ومالك القلوب والاسماع والابصار ، لم يكن فى شيء مما أوحى من آياته الا مثال الكمال المطلق اللائق بأسمائه الحسنى التى منها العدل والحق والخبير ، فهو الذى لم يجعل من رسله جبارين مسيطرين ، ولكن

مبشرين ومنذرين « فذكر انما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر » . « فهل على الرسول الا البلاغ المبين » . « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » . « وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق » . « ما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

ان أول ما بدأ به القرآن فى التحاكم الى العقل الايمان بوجود الله ، فان القرآن ، ومن ورائه علماء الكلام وأصول الدين ، كلهم مجمع على ضرورة طلب تلك العقيدة من طريق النظر والاستدلال ، حتى ان منهم من لم يقبل الايمان التقليدى بالله وان أفتى الغزالى وأمثاله بقبول الايمان التقليدى من العامة والدهماء الذين لا يستطيعون البحث والنظر اما لجهلهم بوسائله أو لضيق مداركهم عن شرائطه ، فاكتفوا من هؤلاء بالايمان الثابت رحمة بهم ، ووقوفا معهم عند مدى موسوعاتهم ، وان كان تقليدا لم يقم على شىء من دعائم العلم الصحيح والبحث النظرى .

فأما دعوة القرآن الكريم الناس الى البحث والنظر والتحاكم معهم الى التفكير والعقل ، فانهما لا تكاد تخلو منهما سورة من السور ، واستيعاب ذلك مما يضيق عنه هذا المقام ، فلنجتزىء هنا باقتباس شىء من هذا فيما يلى من الآيات :

١ ـ « وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الارض قطع متجاورات

وجنات من أعنـاب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بما واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل . ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

٢ ـ « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » .

٣ ـ « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الارض كيف سطحت » .

٤ ـ « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

٥ ـ « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

٦ ـ « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شىء » .

ولا يتسع هذا المقام لاستقصاء ما جاء من ذلك فى القرآن الكريم ، فلنكتف بما اقتبسناه هنا ، منتقلين الى البحث فى مسألة تخبط فيها كثير من الباحثين . تلك هى : ما مصير من لم يقصر فى النظر والبحث ، ولكنه مع ذلك لم يستطع الوصول الى العقيـدة الحقة فى الدين ؟

للعلماء فى هذا المقام آراء مبسوطة في الكتب المختصة بها ، ولا يعنينى هنا الا أن أعتمد على آيات القرآن دون ما قالوه ، فأستفتيها فى حكم ذلك الفريق من الناس ،

الا اننى قبل ذلك استرعى ذهن القارىء الى المسلمات الاولية التالية :

١ ــ أنه ليس فى استطاعة العقل البشرى ، اذا قام عنده الدليل الصحيح على حكم ، أن يرتاب فيه .

٢ ــ أنه ليس فى مقدور العقل البشرى أن يقول بجواز صحة أمرين متناقضين معا .

٣ ــ اذا تعارض حكمان يعتمد أحدهما على الحجج القاطعة ، كان من المستحيل تكليف العقل أن يغلب على سواه .

لاحظ دين الفطرة جميع هذه القضايا الفطرية ، وجاء كتابه السماوى مصدقا لها ، ثم جاء الخلف من العلماء يؤيدونها ، ولكنهم ان اختلفوا بعض الشىء فيما عن لهم من الآراء ، تجدهم أجمعوا على قاعدة أنه يجب أن يؤول الى حكم العقل من الشرعيات ، ما ظاهره يخالف العقل .

وهل هذا الا وقوف عند حدود المسلمات العقلية ، ونزول على حكم الفطرة البشرية ، وهل كان للعقائد أن تكون بالجبر والارغام ؟ أم هل كان لدين الفطرة ، دين البحث والنظر ، أن يكلف بالعقيدة من قصرت عقولهم عن ادراكها ، أو من تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات ، حتى عجزوا عن صدها ومدافعتها ؟

وهل يقول بهذا القول ذلك الدين ، الذى قوض دعائم الايمان بغير المعقولات ، وأقام على أنقاضها عقيدة الايمان اليقينى المتحصل من طريق العقل والنظر ؟ .

ان الله تعالى لأحكم وأعدل أن يكلف الناس ما ليس

فى طاقتهم ، او ان يلزمهم الايمان بما لم يهدهم الى حجته وبرهانه ، يفقه ذلك من يتدبر قوله تعالى : « لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

اذن فلنعد الآن الى سرد آى القرآن الكريم المناسبة لهذا المقام مكتفين منها بما يلى :

١ ــ « قال يا قوم ارايتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم ، انلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ » .

٢ ــ « نحن نعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

٣ ــ « قد بينا الآيات لقوم يعقلون . انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » .

٤ ــ « ان عليك الا البلاغ » .

٥ ــ « انما أنت منذر » .

وخلاصة القـــول أن القرآن ، الذى هو كتاب دين الفطرة ، ما كان ليأتى بما ينافى الآراء القويمة ، أو تغم حكمته على العقول السليمة ، ولم يكن ليكلف العقـل الايمان بما لا يعقل ، أو يحمل الجسم ما لا طاقة له به ، او أن يفترض على الانســـان ما ليس من موسوعات فطرته . اذا فوظيفته فى البشر رسم أقرب الطرق الى الهداية وحفظ العباد عن مواطن الهلك التى يغشاها طلاب الحق والحقيقة ، لا من طريق الوحى بل من طرائق التجارب ، ومصارعة شياطين الانس من الحكام الجائرين ، وعصابات رجال الدين المضللين . ولنا على ذلك ما نشاء من الأدلة والشواهد ، لننظـــر كيف ومتى صحت عزيمة الأمم الغربية ازاء الطلاق وتحريم الخمر والقمار ، وكيف ومتى تحررت فيهم العقول البشرية ، أو أبيحت حرية التفكير

والنشر ، وتقررت بينهم حقوق الانسان ، سائلوا الثورات الدينية والسياسية تنبئكم مبلغ ما أريق فيهـــــا من الدماء ، وأزهق فى سبيلها من الارواح . سلوها تصف لكم فواجعها وأهوالها ، وما أصاب الامم من شرورها ونكباتها .

موقف القرآن الكريم ازاء المعجزات

لست هنا فى مقام المتعرض للبحث فى امر وجوب المعجزات وخوارق العادات اثباتا أو نفيا ، ولا انا فى مقام المعرف بكنهها المحصى لأنواعها وأقسامها ، فان شيئا من ذلك ليس مما نقصد اليه هنا ، ولكن الفرض الذى نرمى اليه فى بحثنا الحـــاضر هو موقف القرآن الكريم ازاء المعجزات والخوارق . ذلك لنعلم هل يرى فيهــــا القرآن ما رأته الاديان الاخرى من اعتبـــــارها أسسا للعقائد الـــدينية ، وآيات قاطعة تـــكفى أن يعتمد عليها الرسل والانبياء فى افحام المتحدين لهم من الأمم التى يرسلون اليها ؟ أم هل يرى فى طبيعتها وقوة حجتها ــ مع دعوته الى التعقل وحضه على النظر والتـــــدبر ــ ما يخرجها عن دوائر الأدلة العقليـــة والبراهين البينة القطعية الملزمة للخصوم بما تقصد له من النتائج ؟

فلا يلتبسن الامر على القراء ولا يغيبن عن أفكارهم هذا المقصد .

امتاز الاسلام من بين الاديان ، كما أسلفنا غير مرة ، بأنه دين الفطرة والعقل ، كمـــــا امتاز رسوله من بين الرسل بأنه الرسول الفطرى الذى أرسل بالحق والهدى

بشيرا ونذيرا . فميزان صحة هذا الشرع الحنيف وقسطاسه المستقيم ، هو أن جميع ما جاء به من الاحكام والمراسم ، وضروب المواعظ والارشاد ، ليس منها ما ينافر العقل الصحيح ، ولا تأباه النفوس السليمة . اذن فما كان له أن يتأيد بما ليس من حدوده ، ولا أن يطابق ما ليس على شاكلته .

كذلك جاء القرآن الكريم بهذا الدين ، دين العلم والحكمة ، دين البيان والبرهان ، ولكن الاقوام الذين انزل فيهم كانوا اهل جهالة وعناد ، وعباد أهواء وشهوات جهلوا سر الاسلام وروحه ، فاستمسكوا بما استمسك به آباؤهم الأولون من طلاب المعجزات والخوارق . ولم يكن طلب تلك المعجزات من الرسول ناجما عن ترو وصدق رأى ، ولكنهم كانوا يقترحونها اما عبثا أو عنادا ، أو التزاما لما ارضعتهم الجاهلية الاولى من الضلالات والاباطيل ، وفقدان العلم ، « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية . كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون. انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم . ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير » .

ظل النبى عليه الصلاة والسلام كلما طلبوا منه المعجزات يدعوهم الى العمل بمقتضيات الفطرة ، ويرشدهم الى كنه وظيفته النبوية ، وما هى سوى الهداية الى السبيل القويم وارشاد الناس قاطبة الى ما فيه الخير والسلامة فى معاشهم ومعادهم « قل

لا اقول لـكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك ان اتبع الا ما يوحى الى . قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تفكرون » »

راى القرآن انه لو كانت المعجزات الخارقة للعـادة كافية مقنعة لما كذب بها الاولون بعد اذ ألحوا فى طلبهـا ، واجيبوا اليها ، فرأتها ابصارهم راى العين . ولكن عدم وجود صلة عقلية بين تلك الآيات وبين ما أريدت له من اثبات رسالات الرسل كان من نتائجه القريبة انه لا تكاد تنزل الآيات لطلابها حتى يسارع الى نفوسهم الشك فيها بعد الاصرار على طلابها واللجاج فى استنزافها ، فمنهم من يراها من أنواع السحر ، ومنهم من يكذب بها بغيـا وعدوانا « واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله ومايشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وابصـارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون • ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشـــاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » .

ولو أن جهل أولئك الأقوام كان جهل المستفيد المتدبر المستهدى ، لما اصروا على طلب ما قـد طلبه اسـلافهم ملحفين ، ثم تولوا عنه بعد اذ جاءهم مدبرين مكذبين . لكن كان ذلك منهم جهل عناد واعنات ، ولهذا لم تفدهم هـدايات القرآن الـكريم ، ولم تزدهم بيناته الا عتـوا واستكبارا « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا • أو يكون لك بيت من زخرف

او ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » ، « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » .

يقص علينـــــا القرآن فى غير موضع انه طالما كذب المشركون واهل الكتاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وامعنوا فى اعناته وايذائه ، ولجوا فى زعمهم انه لو جاءتهم آية ليؤمنن بها . كما يقص علينا أنه لو كانت المعجزات الخارقة من البراهين التي لا يفر المعاند من الخنوع لهـا لأمد الله بها رسوله ، ولأيده بما لا يحيط به الحصر من ضروبها . ولكن علمه الله أن هذه الآيات قد نزلت بمن قبلهم فظلموا بها ،واستنكرتهـا أنفسهم بغيا وعلوا . ولهذا يبين لنا فى صراحة ووضوح أن الله سبحانه وتعالى ابى أن يؤيد هذا الدين الا بالمعجـــــزة التى لا تنافر فطرته ، ولا يقوى معاند على معارضتها . تلك هى القرآن الكريم نفسه « أو لم يكفهم أنا نزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم . ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » .

والمتتبع لآيات الكتاب الكريم يجد ان الرسول عليـــه السلام ما سئل معجزة من المعجزات الا تلطف بطلابهـا وارشدهم فيها الى الأخذ بأسباب العلم والهدى وسماهم تارة بالجاهلين ، وأخرى بالذين لا يعلمون . ولا ترى فى القرآن جميعه أن الرسول عليه السـلام جارى أولئك الحمقى فى سبيل مطالبهم ، وجاءهم بشيء من المعجزات التى سألوها ، وقد جاء هذا صريحا فى قوله « وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون . وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفا »

قال ابن جرير الطبرى فى تفسيره لهـذه الآية : « يقـول تعالى ذكره وما منعنا يا محمد أن نرسل بالآيات التى سألها قومك الا ان من كان قبلهم من الأمم المكذبة سألوا مثل سؤالهم ، فلما أتاهم ما سألوا عنه كذبوا رسلهم فلم يصدقوا مع مجىء الآيات فعوجلوا فلم نرسل الى قومك بالآيات لأنا لو أرسلنا بها اليهم فكذبوا بهـا سلكنا فى تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلهم » .

وما كان مبعث الاضراب عن اجابة مطالبهم والحافهم فى سبيل المعجزات عجز الله تعالت قدرته عن تبديل شىء من ظواهره الكونية العادية . ولكن علم الله منهم ما علم من آبائهم الأولين ، لجاج فى الطلب ، وجنوح عن التصديق ، وجهل بمكانة دين الفطرة ، وضلا عن ركنه المتين ، وهو مطابقته التامة لمقتضيات العقل السليم ، « وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ، قل ان الله قادر أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون » وقد أسلفنا أنه لو كانت دلالة المعجزات الخارقة للعـــادة على الرسالة أو النبوة قطعية اقناعية ، لما أمعن المعاندون فى تأويلها تارة وانكارها أخرى ، وما قوله تعالى « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » الا لبيان هذه الحقيقة . ذلك أن الخوارق للعادة ضروب شتى . فمنها ما يظهر على أيدى المصطفين الأخيار من أنبياء الله ورسله ، ومنها ما يظهر على أيدى غيرهم من السحرة والمشعوذة ، ومنها ما يظهر على أيدى ارباب الرياضـــات الروحانية ، حتى من المجـــوس والمشركين .

لهذا كان من المحتملات القريبة أن يتشكك الناس

فيما يقارن دعوى الرسالة من المعجزات التى يراد منهـا اقناع المدعوين الى صحة الرسالة ، واثبات أن الرسل صادقون فى دعواهم السفارة بين الله وبين خلائقه فى تبليغ أحكامه وآدابه ، ولا يكفى فى التفرقة بين المعجزات وغيرها من الخوارق التى تظهر على أيدى غير الانبياء انهم مبعوثون من قبل الله الى خلائقه لتبليغهم أحكامه وعظاته . فقد عرفنا من آيات القرآن أن الكافرين كانت تأتيهم الآيات بعد اذ يطلبونها من انبيائهم ورسلهم ، فتارة يقولون هى سحر مبين ، وأخرى ينكرونها معاندين .

فالاسلام فيما يصوره القرآن الحكيم قد امتاز عن غيره من الاديان الاخرى بأنه دين اليقين والنظر ، لا دين خوارق العادات ، وما وراء العقل من الآيات . ذلك قوله تعالى « قد بينا الآيات لقوم يعقلون . انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا » .

فآيات القرآن الكريم لم تنزل ليقتنع بها من شغلتهم اوهامهم ووساوسهم ، وتعطلت فى حنايا جماجمهم عقولهم ومداركهم ، فسبحوا فى لجج من الوهم ، وحجبوا بعنادهم عن النظر والفهم ، ولكنه جاء لمن يعقلون ويفقهون أن الله لا يرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين، وان معيار صحة رسالات الرسل صحة ما يأتون به من البلاغ السماوى ، وضمان ذلك لسعادة الانسان فى حياتيه الدنيا والاخرى .

ولقد بلغ حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على قومه حدا كان يكبر عليه فيه أعراضهم عن دعوته ، واصرارهم على مخالفته ، والكفر بآياته حتى كأنما هو بلا مراء مسئول عنهم ، وحامل الأوزارهم ، فأنزل الله فى

تسليته واراحة نفســـــه من عناء الحزن عليهم وآلام الرحمة بهم قوله : « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » . « ان عليك الا البلاغ » . « انما أنت نذير » .

***

ولكم شق على المصطفى صلى الله عليه وسلم انصراف قومه عن هدايته بسبب تخلف المعجزات ، فكانت نفسه الشريفة تطمح آونة فى أن ينزل الله شـيئا من آياته مجاراة لاولئك الضالين المعـاندين ، ولكن الله الذى أدب رسوله واكمل عقله أراه فى آيه « وان كان كبر عليك أعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الارض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » . أراه فى هذه الآية الكريمة أن من الجهل مجاراة الجاهلين ، وأن ليس للعاقل أن يحرص على الخراف الضالة من أشباه الانسان .

وهل كان للرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد اذ بلغ رسالات الله على وجهها أن يضيق صـــــدره بما كانوا يعرضون ، وأن يحزنه الذى يقولون ، أو مصيرهم الذى يوعدون ، فانهم ما كانوا يكذبونه ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، فما عليه اذن من حسابهم من شىء ، بعد اذ قام بما حمله من التبليغ المبين : « واما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب » .

لا اكراه فى الدين

وهنا مبحث يجب أن نعجل الالمام به لكثرة ما خاض فيه الخائضون ، ذلك أن آيات القرآن الكريم جميعها

ناطقة صراحة بأنه لا اكراه فى الدين ، وأن الرسول غير مكلف بشيء سوى التبليغ المبين ، والتذكير بآيات الذكر الحكيم « فذكر انما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر ، وهل كان للرسول عليه الصلاة والسلام أن يقوم فى قومه مقام الجبارين ، فيقتلهم أو يحرقهم لمجرد أعراضهم عن دينه بعد آية : « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

فالاسلام الذى هو دين الفطرة ، ومجموع الكمالات القدسية ، والآداب الالهية ، ليس بذلك الذى يتذرع اليه بالقسوة والغلظة ، ويروج فى العالم بالسيوف والنيران .

ومن الأوليات المسلمة أن العقائد لا تتكون فى نفوس العقلاء بالقوة والقهر ، ولكن لها وسائل معروفة لا تلتمس الا بها ، فمنها البرهان العقلى ، والخطابة والشعر والتقليد ، ولكن من هذه الانواع تأثير فى نفوس الناس ، بمقدار ما فيهم من العقول والتجارب والذكاءوالتحصيل، وانما اعتبرنا التقليد من وسائل اليقين ، لما نعلمه من أن من العامة من لا يكاد يمكن زحزحته عن عقيدته التى ورثها بمحض التقليد والاقتداء ، ولو كانت غير معقولة ، ومنافرة للعقل السليم ، واقرب دليل على ذلك ما عليه النصارى من عقيدة التثليث ، وقولهم أن عيسى صلب ليفتدى أتباعه بدمه ، وليكفر عن العالم جميعه ما ورثوه كرها من سيئات آدم أبى البشر ، وهكذا من العقائد غير البينة .

كذلك من عامة المسلمين من لا يمكن أن يتطرق الريب والمرية الى عقيدته على جهله ، وعدم تحصيله وقصور

عقله ، وما هى سوى قول تلقفه ممن يثق به ، أو أمة وجد عليها آباءه فاقتفى فيها آثارهم .

ما كان للعقائد أن تتكون بالارغام والقهر ، ولا للاسلام الذى هو دين البحث والنظر أن يقول بقتل من لا يدينون به ممن قصرت عقــولهم عن دركــه ، أو تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات حتى عجزوا عن صدها ومدافعتها .

أما المشركون وأهل الكتاب فقد أرتنا السنة المطهــرة والقرآن الحكيم أن الرسول عليه الصلاة والســـلام قد اكتفى منهم فى حقن دمائهم واحترام حقوقهم بالجزية اذا أبوا الاسلام ، يدفعونها فى ســـــبيل حماية أرواحهم وأموالهم واستمتاعهم بما للمسلمين وعليهم ، فهم اذا ما دفعوها كان لهم ما للمسلمين من الحقوق ، وعليهم منها ما عليهم .

اهل الردة

أما أهل الردة الذين دانوا لله ، والتزموا الاسلام ، ثم ارتدوا عنه ــ اما الى غيره من الاديان لشبهات وشكوك قامت بصدورهم فصدتهم عن البقاء على شىء من اصوله ، ويسمى الفقهاء جميع هؤلاء بالمرتدين ويفتون فيهم بالقتل ، اما بعد الاستتابة أو دونها على خلاف لهم فى ذلك ــ أما هؤلاء فان علينا أن نبين هنا رأينا فيهم طبق ما يدل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية فنقول :

ان ذكر الردة جاءنا فى موضعين من القرآن الكريم ؛ ففى سورة البقرة جاءت آية : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ، ومن يرتدد منكم عن

دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وفى سورة المائدة جاء قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » .

وظاهر أن هاتين الآيتين لا تدلان على معاملة أهل الردة بما أفتى الفقهاء من القتل لمجرد الرجوع عن الدين ، وكل ما دلت عليه آية البقرة ــ المذكورة آنفا ــ أن المرتدين مطرودون من رحمة الله تعالى ، ومعنى الردة هنا ــ على ما يظهر من سياق الآية ومن روح الكلمة ــ أن معناها الارتداد عن الدين ، أى الكف عن الجهاد فى سبيله ، والارتداد عن منازلة الأعداء الذين كانوا لا يفتأون يقاتلون الرسول واتباعه ليفتنوهم عن دينهم ويرجعوهم كفارا بعد اذ آمنوا .

يدلك على هذا التأويل ما جاء قبل ذلك من الآيات . قال تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » .

يستنبط من ظاهر هذه الكلمات الكريمة أنها نزلت فى قوم من المسلمين كانوا يهمون بالكف عن القتال ، ويرغبون عن ان يدافعوا عن دينهم ، وأن يبذلوا مهجهم وارواحهم

فى نصرته وتأييده ، بغضا للقتـــال ، وضنا بالارواح ، وما علموا لجهلهم أنه ليس وراء اخلادهم الى العـــدو واعراضهم عن صده سوى أن يستذلهم ذلك العـــدو ويتعبدهم ، وأن الموت الذى يفرون منه لا ريب ملاقيهم، الى ذلك يشير قوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » .

ولو أن أولئك النفر ادركوا بسهولة ، ما وراء هاتين الكلمتين القدسيتين من الحكم البالغة ، والمنافع العظيمة، ما سألوا بعد ذلك رسولهم عن القتال فى سبيل الله خلال الاشهر الحرم ، ولكن وهنت قلوبهم ، وتمكن حب الحياة من نفوسهم ، وقصرت أبصارهم عن درك ما وراء ذلك من الذل الخالد والمسكنة الابدية ، واستهانوا بأمر الفتنة فى الدين ، فجنحوا الى التسليم ، واغمـاد السيوف ، سائلين الرسول عليه الصلاة والسلام عن القتال خلال الشهر الحـــرام ، كأنهم يريدون بذلك أن يجـد لهم من تحريم هذا الشهر معذرة عن القعود عن مقارعة الاعداء ، وحماية دين الله من الاذى والمكر السيىء .

ولما كان ذلك الرهط على ما وصفنا من الضعف والجنوح الى النزول على حكم أعـداء دينهم من المشركين وأهـل الكتاب ، جاء فى استنفارهم وحثهم على منازلة أعدائهم قوله تعالى بعد ذلك ، « ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمـــالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ذلك حكم الله فى المسلمين ، اذا ما فتنوا عن دينهم ، وقاتلهم عن البقاء عليه أعداؤهم ، وما جزاء من يجبن عن لقاء عدوه ، ويرغب عن بذل روحه فى سبيل حمـاية

دينه وملته « الا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيـــامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما يفعلون » .

فالردة فى هذه الآية الكريمة ليست الفســـوق عن العقائد الاسلامية لشبهة قامت بأنفس المرتدين ، ولكنها ردتهم عن نصرة الاسلام ، وتخلفهم بأنفسهم عن تأييده ، وحماية ذماره ، بينما أعداؤه لا يفتأون يناوئونه ويكيدون له ، ولا يزالون يحاربون رسوله والقوامين عليه .

وهذه الآية وان لم تنص على قتل أولئك المرتدين ، فقد أرتنا السنة المطهرة كيف قاتلهم الرسول وخليفتاه أبو بكر وعمر من بعده ، وكيف نكلوا بهم اذ كفوا عن الدفاع عنه ، ثم انقلبوا خوارج عليه ، يحـاربونه ويقتلون أهله تأييدا للمشركين من أقوامهم وتوهينا لبنيانه ، بعـــد اذ ظهروا على عورات المسلمين ، ووقفوا على مواطن الضعف فيهم . ذكر صاحب الكشاف أن احدى عشرة فرقة من العرب ارتدت عن الاسلام ، ثلاث فى زمن الرسول عليه السلام ، وسبع فى خلافة أبى بكر ، وواحدة فى عهد عمر ، وقد كفى الله الاسلام ما أرادوه من تخذيله وتوهينه ونقض أركانه .

ذلك قولنا فى آية البقرة . أما آية المائدة فان المتدبر للآيات السابقة لها فى القرآن الكريم ، يتبين انها لا تكاد تخرج عن المعنى الذى نزلت فيه آية البقرة ، ذلك أن قوما من منافقى المسلمين قد وهنت قلوبهم وعزائمهم ، فجعلـوا يخشون أن تصيب المسلمين دائرة فيظهر عليهم اعداؤهم من أهل الكتاب ، هنالك جعلوا يخالطون اليهود ويسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، يريدون بذلك أن يتخذوا لهم يدا عندهم ، حتى اذا كان ما حسبوا وخشوا ،

سلموا من بطشهم واذاهم . وفى هؤلاء نزلت الآيات :
« يآيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد ايمانهم انهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » .

اتخذ هؤلاء المنافقون بطانة لهم من غير المسلمين ، ليكونوا لهم شفعاء اذا وقع ما خشوا وحسبوا ، وأسرعوا خفية الى الاندماج فى سلك أهل الكتاب لتوقعهم سرعه غلبهم وظفرهم بالنبى عليه الصلاة والسلام وأشياعه ، فكفوا بذلك عن نصرته وتأييده ومظاهرته على أعداء دينه من اليهود والنصارى ، ولولا أن الله تعالى أتى للمسلمين « بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » لأصاب المسلمين من ذلك المكر السيىء الذى بيته أولئك المنافقون ، ومن تخلفهم وارتدادهم ، وتوليهم عمداً عن نصرة دين الاسلام ومناصرة أهله ، ما قد كان يمحو آثار التوحيد ، ويرفع منار الشرك فى الارض .

فالارتداد فى آية المائدة ــ كما رأيت من السياق ومن نظم تلك الآية نفسها ــ انما أريد به تولى أولئك المرتدين عن نصرة الاسلام ، والتخلف عن درء الأذى عن اخوانهم المسلمين ، تاركيهم لغارات أعدائهم .

ومن الآيات التى جاءت فى هذا الموضوع ، واختلف فيها أهل التأويل قوله تعالى : « فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا ، أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا ، الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم ، أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم ، فما جعل الله لكم عليهم سبيلا . ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ، كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها ، فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم ، فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » .

اى ما شأنكم أيها المؤمنون فى أهل النفاق فئتين (١) والله ردهم الى أحكام أهل الشرك المحاربين فى اباحة دمائهم .

نزلت هذه الآيات على رأى فيمن تخلفوا عن الحرب فى وقعة أحد ، وانصرفوا الى المدينة قائلين : « لو نعلم قتالا لاتبعناكم » ، وهذا التأويل يلحق هؤلاء المتخلفين بالفارين من الحرب الذين تبيح القوانين الحربية فى كل زمان ومكان ودولة دماءهم . على أن الآيات السابقة قد جاءتنا بحقن دماء طائفتين من هؤلاء وهما : من يصلون

(١) تفسير الطبرى جزء ٥ صفحة ١١٢ الى ١١٨ مع بعض تصرف

الى قوم بينهم وبين المسلمين موادعة وميثاق وعهد . ومن جاءوا المسلمين وقد حصرت صدورهم أى ضاقت عن الميل الى مقاتلة المسلمين أو مقاتلة أقوامهم ، فلم يجعل الله بذلك سـبيلا للمؤمنين على أنفس هـؤلاء وأمـوالهم وذراريهم ونسائهم .

وقال آخرون : بل كان اختلاف المؤمنين فى قوم من أهل الشرك كانوا أظهروا الاسلام بمكة وكانوا يعينون المشركين على المسـلمين ، فخـرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم ، فقالوا ان لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس .

فأصحاب هذا التأويل على ما وصفنا يرون أن الآيات الـكريمة نزلت فى منافقين غير مسلمين ولـكنهم خونة غدارون .

والقول السديد الذى ارتضاه الطبرى فى تفسيره ، وهو الذى أراه ، أنها نزلت فى قوم من أهل مكة لا المدينة ارتدوا بعد اسلامهم فكانوا حربا على المسلمين مع قومهم ويؤيده قوله تعالى : « فلا تتخـذوا منهم اوليـاء حتى يهاجروا » فان الهجرة لم تكن فرضا على أهل المدينة ومع ذلك فهى مقيدة باستثناء الطائفتين الواردتين فى قوله : « الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق أوجاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أويقاتلوا قومهم ، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ، فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » .

ومن هنا يتبين انه لا علاقة لهذه الآية بمسألة الارتداد عن الاسلام لمجرد شبهة لم يستطع صاحبها ردها ، وفكرة عجز عن دفعها .

ذلك ما جاء فى القرآن الكريم ، فلننتقل الى ما ورد فى السنة فى هذا الباب ، فنقول :

ان الأحاديث التى وردت فى هذا الباب كثيرة ، وجلها من الآثار المروية عن عمر أمير المؤمنين وعلى بن أبى‌طالب، وابن عباس رضى الله عنهم . أما ما عزى الى الرسول عليه السلام فى ذلك وصح سنده ، فقليل جدا ، ومنه أن قد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل المرتدين المحاربين .

روى فى ذلك البخارى حديث النفر عن عكل ، اذ قدموا على الرسول عليه السلام ، فأسلموا فاجتووا المدينة ، فأمرهم أن يأتوا ابل الصدقة فيشربوا من ألبانها ففعلوا ، فصحوا ثم ارتدوا وقتلوا رعاتها واستاقوا الابل، فبعث فى آثارهم ، فاتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ، ثم لم يحسمهم حتى ماتوا .

وورد هذا الحديث لغير البخارى مع بعض تغيير زهيد .

ولا مراء أن ذلك الحديث صحيح السند والمتن ، ولكن ذلك النفر من عكل ، فضلا عن ردتهم ، كانوا من أولئك الخائنين المحاربين ، الذين يسعون فى الارض فسادا ، المنطبق عليهم آية : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض» .

فلم يكن منشأ ما فعل الرسول (ص) لهم طروء شبهة لهم أوهنت فيهم عقيدة الاسلام ، أو حجة أرتهم صحة ما كانوا عليه من عبادة الاوثان ، ولكن لما رأينا من ارتدادهم الى محاربة المسلمين وايذائهم ومحاولة اللحاق

بأقوامهم لمناصرتهم ومؤازرتهم . فهم خائنون ومحاربون وساعون بالفساد فى الارض تنطق بذلك كله عبارات الحديث المروى آنفا عن البخارى فى شأنهم .

أما غير المحاربين من المرتدين ، فللعلماء كلام طويل فى جزائهم ، فالجمهور من الفقهـــــاء يقولون بقتل المرتد والمرتدة ، عملا بعموم حديث (من بدل دينه فاقتلوه) . وخصه الحنفية بالذكور وتمسكوا بنهى الرسول عن قتل الاناث . وأما جميع ما ورد من الاحاديث فى قتل الرسول لبعض النساء المرتدات فأسانيدها ضعيفة . بل لقد قال ابن الطلاع فى الاحكام انه لم ينقل عن الرسول عليـــــه الصلاة والسلام أنه قتل مرتدة .

وجمهور الفقهاء ، وان قالوا بقتل المرتد ، اختلفوا فى امر استتابته قبل القتل ، فمنهم من أوجب أن يستتاب أولا فان لم يتب قتل ، وذهب الحسن وأهل الظـاهر وكثير غيرهم الى القتل فى الحال . قال الشـــوكانى فى نيل الاوطار ، وعليه يدل تصرف البخارى ، فانه استظهر بالآيات التى لا ذكر فيها للاستتابة والتى فيها أن التوبة لا تنفع ، وبعموم قوله (من بدل دينه فاقتلوه) . ويرى النخعى أن المرتد يستتاب أبدا (أى فلا يقتل) .

تلك أقوالهم فى هذا البـــاب ، ولهم تفصيلات كثيرة لا حاجة الى استيعابها ، والذى نراه فى ذلك قد يخالف ما قالوه من وجوه ، ولكن لا حرج علينا فيما نرجو ما دام عمدتنا فى ذلك كتاب الله الكريم وسيرة الرســـول عليه السلام .

***

وخلاصة رأينا فى ذلك أن القرآن الكريم لم ينص فى

آية ما على قتل المرتدين عن دين الاسلام الى دين آخر على النحـو الذى شرحنـاه فى تفسير آيتى الارتداد السابقتى الذكر . وأما الاحاديث التى سردها البخارى واستدل بها على وجوب قتل المرتد فورا ، فليس شيء منها فيما نرى جاء نصا فى القول بالقتل ، ولا فى بيـان حدود الردة وكنهها والتعريف بها ، ولقد نستوفى الكلام فيها فيما بعد بما لا غبار عليه ، بيد انه يجمل بالباحث أن يتدبر المقدمات الآتية قبل استنباط حكم قاطع فى هذا الباب .

اولا ــ ان القرآن ليس فيه نص قاطع على أن المرتد بالمعنى الذى يريده الفقهاء يقتل .

ثانيا ــ ان لبدء ظهور الاسلام من الاحكام ما ليس لغيره . ذلك أن المرتدين عن الاسلام يوم بدأ رسولنا الاكرم الدعوة الى التوحيد كانوا يعودون الى ما كانوا عليه من اليهودية أو النصرانية أو الوثنية ، وكانوا اذ ذاك يلحقون بأقوامهم ويحـاربون المسـلمين فى صفوفهم أو يظهرونهم على عوراتهم ، فارتداد من كانوا يرتدون اذ ذاك عن الاسلام لم يكن لمجرد الخروج عن هـذا الدين ، ولكن كان دائما مشفوعا بمظاهرة من يلحقون بهم من اقوامهم .

والمستقرىء لاحاديث الباب لا يكاد يجدها تخرج عما قلنا ، فمعاملة رسولنا الاكرم وخلفائه من بعده للمرتدين، تلك المعاملة كانت فيما نرى لأنهم ينقلبون خائنين محاربين لله ورسوله والمسلمين . واننا لنرى اليوم أن الفار من الحرب أو الملتحق بجيوش العدو المحارب لحكومته يعتبر خائنا ويقتل من فوره ، ولو لم يرتد عن دينه ، فما بالنا لا ندرك سر قتل الرسول وخلفائه للمرتدين عن الاسلام

الذين لم يقتلوا اشتدت بهم الفتنة وظاهروا قومهم على المسلمين ، وكشفوا لهم عن عورات هؤلاء ، ودلوهم على مواطن الوهن فيهم .

ولقد كان منهم طائفة يؤمنون بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ويكفرون آخره لعلهم يرجعون ، فالمرتدون فى صدر الاسلام كانوا فى الغالب ممن دخلوا فى الاسلام نفاقا ، وخرجوا منه للفتنة وكشف الاسرار .

ثالثا ـ ان الردة التى جاءت فى آيات البقرة وغيرها كانت ارتدادا عن نصرة المسلمين والاشتراك معهم فى محاربة أهل الكتاب ، لما كانوا يخشونه من ظهور هؤلاء على المسلمين ، وظفرهم بهم يوما ، فأرادوا بذلك أن يتخذوا عندهم من الايادى ما يحقنون به دماءهم ويعصمون أرواحهم .

رابعا ـ ان رسول الله صلى الله عليهم وسلم علمنا كيف نتصرف فى الحوادث ، ونقف عند حدود مقتضيات الاحوال . ولنا من سيرته السامية وأعماله الحكيمة آلاف من الادلة والآيات ، ولكننا ابتلينا بالجمود ، وضعفنا عن ادراك أسرار سيرته ودينه الفطرى ، ووقفنا عند حدود الالفاظ ، واخذنا نتقيد ببعض الروايات . ولقد كان لنا من حكمة رسولنا الحكيم وعلمه الالهى ما يرشدنا الى أيسر السبل وأقومها لو كنا نعقل . ولنضرب لك ايها المتدبر المفكر فى ذلك بعض الآيات والشواهد .

بدأ النبى صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى الاسلام ، وهم على ما نعلم من الجهالة والضلال والشرك المبين ، فكان عليه الصلاة والسلام يتدرج بالاقوام رويدا رويدا ، كما يلين لهم من جانبه ، ويتساهل فى

مطالبهم ، تأليفا لقلوبهم واستمالة لهم الى التوحيد .
ومن ذلك ما روى عن نضر بن الليث عن رجل منهم .
أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسلم على أن يصلى صلاتين لا خمسا فقبل منه ، رواه الامام أحمد . وفى لفظ آخر له على ألا يصلى الا صلاة فقبل . وعن وهب قال : سألت جابرا عن شأن ثقيف اذ بايعت فقال : اشترطت على النبى أن لا صدقة عليها ولا جهاد ، وأنه سمع النبى عليه الصلاة والسلام يقول : « بعد ذلك سيتصدقون ويجاهدون » رواه أبو داود .

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل : « اسلم » . قال : « أجدنى كارها » . قال : « اسلم وان كنت كارها » رواه أحمد . قال الشوكانى ـ بعد أن سرد هذه الاحاديث ـ فيها دليل على أنه يجوز مبايعة الكافر وقبول الاسلام منه وان شرط شرطا باطلا، وأنه يصح اسلام من كان كافرا .

فعل ذلك الرسول الكريم ، لما يعلمه من أن من المنفرات تكليف المدعو جميع أحكام الله فى آن واحد ، وأنه لا حرج أن يشترط المدعو ما شاء من الشرائط ، ولو باطلة ، فان دخوله فى الاسلام على أى وجه جدير ان يوجد فى نفسه من الميل للاسلام والعطف على اخوانه المسلمين ما يدفعه الى بذل ما ضن به ونقض ما قدم فى بيعته من الشرائط . ينبىء بذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث جابر المذكور آنفا (سيتصدقون ويجاهدون) .

فانظر كيف فعل ذلك الرسول الحكيم ، فراعى مقتضيات الاحوال ، واتى بما هو الاصلح للاسلام والمسلمين .

وناهيك بما فعله فى صلح الحديبية ، من قبوله شروط قريش الاربعة ، ورضاه أن يرد الى المشركين من يجيئه منهم مسلما ، على ألا يردوا هم من فر اليهم من المسلمين، فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فيه من الاسرار والحكم البالغة ، مما لم يفقه الذين شهدوا ذلك الصلح من الصحابة الا بعد أمد غير قصير .

لقد كان الاسلام يوم بدأ غريبا ضعيفا ، فكان لابد من اتخاذ كل ما يمكن من ضروب التحوطات والشدة ، حتى يشتد ويقوى ، ويسلم مما كان يراد به من الفتنة والاذى . ولقد اقتضت حكمة الحكيم العليم ، أن يقيم الرسول الكريم عليه السلام ، فى ذلك من الاحكام ما يضمن سلامة الاسلام ، فلما أيد الله دينه ورفع منار كلمته ، كان لابد أن تكون هناك أحكام أخرى تناسب ما صار اليه المسلمون من القوة والمنعة ، وما أصبح فيه الاسلام من السلامة والامان ، من ذلك ما رواه البخارى بسنده عن ابن عمر ان رجلا جاءه ، فقال : يا أبا عبد الله الا تصنع ما ذكر الله فى كتابه « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » (الآية) فما يمنعك الا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه ؟ فقال : يا ابن أخى : اعير بهذه الآية ولا أقاتل أحب الى من أن أعير بآية « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها » . قال فان الله يقول « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » قال عبد الله بن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ كان الاسلام ضعيفا ، وكان الرجل يفتن فى دينه اما أن يقتلوه واما أن يوثقوه حتى كثر الاسلام ، فلم تكن فتنة .

فانظر كيف كان عبد الله يفسر الفتنة ، ويفرق فى الاحكام بين عهد الاسلام بالقلة والضعف ، وما صار اليه لعهده من العزة والمنعة . ولعل ما ذكرناه هنا هو سر قول الامام النخعى بأن المرتد يستتاب أبدا ولا يقتل . ذلك أن الاسلام على عهده ما كان لتضره ردة المرتدين ، بعد اذ أصبح فى مأمن من أن تؤذيه مكايد المشركين ، ومن يرتدون اليهم من منافقى المسلمين .

ولو كان حديث (من بدل دينه فاقتلوه) ، الذى رواه البخارى وغيره على نصه غير مختص بزمان ولا معقود بمقتضيات غير مطردة ، ما وسع النخعى ولا غيره مخالفته .

واذ مهدنا أمامك السبيل ، بتلك المقدمات التى اسلفنا ، فاعلم ان الذى نراه ، أن المرتد اما أن يرتد عن دينه ، فلا ينضم الى المدافعين عنه من المسلمين ، ولا يقف منهم موقف المسالم غير الخائن ، كما كان يفعل أولئك الذين نزلت فيهم آيات البقرة والمائدة ، فهذا لا جرم يقتل . واصرح ما نزل فى ذلك قوله تعالى : « ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ، كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها ، فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم ، فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » .

ومثل هذا القسم من يرتدون ويحاربون ، كما سبق فى حديث النفر من عكل . ولا ريب أن المرتد من أحد هذين القسمين منافق خائن أو محارب ، فلابد أن يقتل من فوره .

وكذلك تفعل الممالك جميعها فى الوقت الحاضر ، مع امثال هؤلاء من افراد شعوبهم ورعاياهم .

الزنادقة

ويلحق بهذا النوع الزنادقة ، الذين كانوا على عهد على ابن أبى طالب رضى الله عنه . فقد روى من طريق عبد الله ابن شريك العامرى عن أبيه ، قوله لعلى : ان هنا قوما على باب المسجد يدعون أنك ربهم ، فدعاهم فقال لهم : ويلكم ما تقولون ؟ . قالوا : أنت ربنا وخالقنا ورازقنا ! . فقال : ويلكم انما أنا عبد مثلكم ، آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون ان أطعت الله أثابنى ان شاء ، وان عصيته خشيت أن يعذبنى ، فاتقوا الله وارجعوا . فأبوا ، فلما كان الغد غدوا عليه ، فجاء قنبر فقال : قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام . فقـــال : أدخلهم . فقالوا كذلك . فلما كان الثالث ، قال : فان قلتم ذلك لاقتلنكم بأخبث قتلة ، فأبوا الا ذلك فقال : يا قنبر أعنى بفعلة معهم . فخد لهم أخدودا بين باب المسجد والقبر ، وقال احفروا وابعدوا فى الارض ، وجاء بالحطب فطرحه بالنار فى الاخدود ، وقال : انى طارحكم فيها أو ترجعوا . فأبوا أن يرجعوا ، فقذف بهم فيها .

وكان يقال لهذه الطائفة سبئية ، نسبة الى كبيرهم عبد الله بن سبأ الذى أظهر الاسلام وابتدع هذه المقالة . وانما ألحقنا هؤلاء الزنادقة بالقسمين قبلهم لانهم ظهروا والاسلام غض العهد بالوجود كثير الاعداء والمحاربين .

فلو أن على بن أبى طالب ، ابن عم الرســـول وختنه ، واصل العترة النبوية ، أبقى عليهم ، او خفف العقوبة عنهم ، لانمحت آيات التوحيد من ظهر الارض ، ولما وجد فى العالم أحد من المسلمين ، ولكان للناس من على بن أبى طالب ، ما كان لليهود من عزير .

أما أمثال هذه الفرق اليوم ، وقد اشتد ساعد الاسلام ، وقويت شوكته وتبينت للناس حقائقه وأصوله ، فلا خوف عليه منهم ، ولو كثرت جموعهم وعظم سلطانهم ، اللهم الا اذا أخذوا يفتنون المسلمين عن دينهم بالقتل أو السجن أو التنكيل ، فهناك يحق على المسلمين مناهضتهم وتقتيلهم اينما ثقفوهم .

وأما الذين لم يرتدوا عن تأييد الاسلام ، ولم يخرجوا عليه ، ولم ينضموا الى صفوف أعدائه ، ولم يخونوه فى شيء ، ولكن أضلتهم بعض الشبهات ، التى لم يستطيعوا لها ردا ، والشكوك التى لم يقووا على مدافعتها بالحجة والبرهان ، فان سبيلهم فيما نرى الا يعتبروا كالمرتدين ، ما داموا لم يهتدوا الى الصواب ، ولم يقم من أهل الذكر والعلم من يبين لهم فيها الرشد من الغى .

والله سبحانه وتعالى أحكم وأعدل أن يكلف الناس ما ليس فى طاقتهم ، او أن يلزمهم الايمان بما لم يهدهم وجه الصواب فيه . يدرك ذلك من يفقه سر قوله تعالى : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » فان الرسل قد بعثهم الله لخليفته وكلفهم البلاغ المبين ، اذا فلا تكليف الا حيث البلاغ المبين . فاذا ابتلى العامة بأمثال بعض علماء هذا العصر الجامدين ، وازدحمت الشكوك والشبهات على صدور الناشئين من المسلمين ، فكيف يؤاخذون اذا ضلت أحلامهم بعد اذ فقدوا أركان الاسلام، وأساطين علمائه الذين يقتدرون أن يدرأوا الشبهات ، ويهدوا الهائمين فى أودية الضلالات .

جمود المتصدين للفتوى

أقول ذلك بعد اذ رأيت من الشبان المسلمين ، من كانوا يطرقون أبواب شيوخ العلماء ، ويغشون مجالس أئمة الاسلام ، لا لغرض سوى استفتائهم فى بعض أصول الاسلام ، والفرار الى معاقل علمهم وهدايتهم ، يتقون بها هجمات جيوش الشكوك والاوهام ، حتى اذا استفتحوا عليهم بكلمة واحدة فى ذلك ، سمعوا من فحشهم وسبهم وتقريعهم ، ما كان يصد أولئك الحائرين عن مجالسهم ، وقد تنازعتهم ضلالات الحيرة ، ودفعتهم معاملة الشيوخ الى اليأس من بلوغ غايتهم وصلاح عقيدتهم .

ونحن على ثقة من أنه لو درس شيوخ المسلمين العلوم الكونية ، وعرفوا أسرار سنة الله فى خليقته ، لما كثرت الملاحدة وفشت المنكرات ، فكيف لنا ـ مع جمود هؤلاء المتصدين للفتيا والارشاد ـ أن نؤاخذ النشء الصغار وغيرهم ، ممن لم يستوعبوا أصول الدين ، ولم يهتدوا الى صواب اليقين ، وهم عاجزون عن مدافعة ما لا قبل لهم به من غارات الشكوك والشبهات .

انه قد تعرض لنفس المسلم شبهة لا يستطيع دفعها ، على حين لم يقصر فى التنقيب عن وجه الصواب والحق فيها ، فهل هناك دين غير الاسلام ، يحكم بنجاة هذه النفس الحائرة ، ويقول ما قال القرآن : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » . « لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها » . « لا اكراه فى الدين » ؟ . . أفلم يعتبر القرآن التفكر فى ملكوت الله من كبريات العبادات ، يزدلف بها الى الله ؟

أولم يقـل رسوله صلى الله عليـــه وسلم : « تفكر ساعة خير من قيام ليلة » الى نحو ذلك مما علم المسلمين، أن من أعظم العبادات قراءة كل ما يعين الانسان على معرفة حكم الله فى خلائقه ، وادراك البدائع من صنعته، ككتب الطب والتشريح وعلم الحياة وعلم وظائف الاعضاء وعلم النفس وأشباهها ؟ أليس ذلك يخول المسلم ، متى أحسن النية ، أن تكون أكثر أيام تحصيله للعلم ، وأعماله للفكر ، عبادة الله تعالى وتعرفا اليه ، بما يفهم من بدائع آثاره ، وما يدرك من دقائق صنعته ؟ اذن فالانسان فى نظر القرآن كلما ازداد علما وبحثا ، ازداد عند الله تعالى اقترابا وحظا .

مقام القرآن الحكيم ازاء العلوم والمعارف الكونية

كثيرا ما نسمع من خطبـــائنا العصريين ، ونقرأ فى صحفنا ومجلاتنا الحديثة ، ما يمثل لنـــا العلم والدين كدولتين فى حرب قائمة دائمة ، لا يستقر لها صلح ، ولا تتخللها مهادنة .

يلهج بذلك أشباه المحصلين ، وتلاميذ آثار الغـربيين ، ممن يطيرون لكل هيعة ، ويفتنون بكل بدعة ، ولو كبلت عقولهم بأغلال التقليد ، واحتبست أفهامهم عن التدبر والتفكير .

ليت شعرى أفما كان الاجدر بمن منحوا فطرة الانسان، ورفعوا عن مراتب العجم من الحيـــوان ، أن يتساموا بعقولهم ويتحاكموا الى بصائرهم فيما يعرض لهم من النظريات ؟ بلى ، ولكنهم أبوا الا أن يجمدوا على الثقة

بالمباحث والاقوال الغربية دون سبر لاغوارها ولا تفكر في مبلغها من الصدق ، وما يتبع أكثرهم في ذلك الا الظن وما تهوى الأنفس . وليت هؤلاء يكتفون بخزى الجمود أمام الحديث فيقفون ازاءه سلبيين صامتين لا يبدون حراكا ولا ينتحلون فهما ، بل نراهم على ضلالهم الكثيف وجهلهم الفاحش يملأون الفضاء بالدعاوى الجوفاء ، ويدعون لأنفسهم علوم الارض والسماء ثم لا ينفكون يقذفون مع ذلك برجوم تهكمهم وسخريتهم قديم المأثورات ويغضون ابصارهم حتى عن آياتها البينات .

جهل ذلك الرهط من المتفيهقين تاريخ الأمم الغربية ومصدر تقلباتهم وتطوراتهم التى تعاقبت فيهم ، جهلوا ما انبعث عنه أحكامهم وأقوالهم فى مختلف المواقف الدينية والسياسية والاجتماعية ، جهلوا جميع ذلك ، كما جهلوا ، اللباب من أمر دينهم وبيض الصحائف من تاريخ أسلافهم ، وليتهم مع ذلك الجهل المؤكد أنصفوا الطائفتين فسووا بينهما حبا أو كرها ، وانتظموهما فى سلك واحد من المعاملة الحرة البريئة من شوائب التحيز ، ولكننا نجدهم اذا عرض لهم شيء ليس بغربى لووا رؤوسهم وثنوا أعطافهم ، وقالوا فى عنجهية شوهاء ونعرة حمقاء : « لا حاجة لنا بما لم يصدر عن أوروبا ، ولا نولى ثقتنا من لم يرد مناهلها ولم يتخرج على أساتذتها » .

وانه لحسب أحدهم اذا ما شئت اقناعه أن تقول له « بذلك يقول المستر فلان الانجليزى ، أو المسيو فلان الفرنسى ، أو الهر فلان الالمانى » . فليكفينك هذا وحده مشقة التدليل وتوفير البراهين ، وليسلسن لك ذلك مجردا ما شئت من أعنة كل عصى شموس .

ولو أن أسارى التقليد ممن تصدوا لزعامة الحــركة الفكرية والنهضة العلمية ، كانوا طلقاء العقول ، أحرار التفكير ، لما ابتاعوا من محصول العقول الغربية الا ما أمنوا غشه ، واستوثقوا من نقاء معدنه ، وكمال صلاحه بعد اذ عرضوه على محك الاختيار ، وناقشــوا أصــحابه دقيق الحساب ، وميزوا ما فيه من النافع والضار ، ذلك كيلا يقبلوا قولا ولا يرفضوا رأيا الا وأفئدتهم مطمئنة وأقدامهم ثابتة ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة .
ولكنها فيما نرى نوبات عصبية ، وغضبات جاهليــة ، ملكت أعنة قلــوبهم ، ولعبت بموازين أفهامهم ، فأطلقت السنتهم بالأراجيف ، وسولت لهم كل رأى سخيف .

زعموا أنه لا يجوز للدين أن يقف في ســبيل الرقي العلمي ، وأنه اذا لم يتنح عن سبيله فســتكون الهزيمة المنكرة مصيره .

كذلكم يقولون أيضا فيما يرجفون انه لابد من فصــل الدولة عن الدين وان حرية الفكر الانسانى تستلزم انقلابه ماديا طليقا لا يتقيد بشيء من قيود الاديان .

هذه هي الدعائم التي يقيم عليها اولئك الحــائرون والاباحيون فى هذه البــلاد واشباهها صروح نهضتهم ومعاقل دعوتهم ، ولقد بينا مبلغ ضلال أحلامهم فى تلك المقالات ، وخيبة ما بيتوا من الكيد السيىء لاهل القرآن ، كما أوضحنا أن هؤلاء المستخفين والطاعنين ، لو كان لهم علم بأصول القرآن ووقوف على ما مكن للعقل والوجدان، وأرسى من قواعد الحرية الصادقة فى سائر شعب الحياة، لما زلت لهم قدم فى مزالق التقليد ، ولفقهوا جلال ذلك

الكتاب الذى يقول : « ولا تقف ما ليس لك به علم »
والذى يقول : فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » .

معلوم ان الحكمة فى ظهور الانبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، انما هى دعوة امههم الضالة الى اصلاح ما فسد من أمرها ، ومعالجة ما مرض من أخلاقها، وكبح ما جمح من أهوائها وشهواتها .

ولقد جاء أكثر الانبياء والمرسلين برسالات خاصة ، كما جاء بعضهم لمعالجة أمراض معينة فى أقوامهم ،جلها فيما يحدثنا القصص اجتماعى وخلقى ، ولم يكن فى موسوعات رسالات أكثرهم البحث فى العلوم الكونية والظواهر الطبيعية ، بل ولا النظم والقوانين المدنية .

واذا كانت رسالات أكثر الانبياء انقطعت بانقطاعهم ، ودرست معالمها بفنائهم ، حتى لم يبق سبيل الى ضبط ما جاء منها ، ضبط احصاء واستيعاب ، فان لنا أن نستأنس بتاريخ رسالة سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام ، فانها مرآة غيرها من سائر الرسالات التى سبقتها .

ظهر المسيح عليه السلام فى جزء من المملكة الرومانية ذات القوانين المدنية والدساتير السياسية ، بيد أنه ظهر فى أمة اليهود ، بعد أن انصرفوا الى عبادة أحبارهم ، وتقطعت فيهم أواصر الارحام ، وتفسخت الاخلاق عن النفوس ، وتفشت المنكرات ، وأعوز الناس الرحمة والحنان ، حتى لم يكد يبقى لهم فى الحياة من مطلب سوى الملاذ البهيمية والمآرب الشهوية .

لقد كانت أمة المسيح من اليهود على تلك الحالة يوم جاءهم بالتنفير من زخرف الدنيا ، وتزهيدهم فى باطل

متاعها ، وعندما ضرب لهم الامثـــال والقصص ، ليقيم الحرب على الشهوات والماديات التى كانت مالكة لأعنة قلوبهم ، ومضللة لعقولهم ونفوسهم .

ولقد كان من تعاليم أولئك الانبياء والمرسلين ، ومن حذا حذوهم من المصلحين ما جاء عقوبة لأممهم المتفحشة زجرا لهم عن رجس الشهوات التى عكفوا على مرضاتها ، وأسلموا مقاليدهم لها ، حتى أنستهم أنفسهم ، وهبطت بهم الى مراتب سائر الحيوان الأعجم . فللعقوبة والتنكيل كان ما جاءوا به من الحض على الرهبانية ، والترغيب فى الخصاء ، والحث على افناء القوى العقلية والبدنية بالصوم المرهق والتعذيب بالتحرج عن أكثر مطالب الحياة. وما كانت امثال هذه التعاليم فى سبيل المصلحة العامة العمرانية ، ولا مقصودة لغير من نزلت فيهم من أشرار الناس وعبدة الشـــهوات ، والا فهى منقصة للنسل ، مذهبة للعمران ، سبيل الى الخراب والزوال . ولذلك يمكن القول بأن رسالات السيد المسيح ، وأكثر من تقدمه من الانبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ، كانت فى جوهرها مقصورة على قسم الجهاد النفسى ، والتربية الخلقية ، كما أنها جاءت لطوائف من أقوامهم بعقوبات وزواجر بلغت فى شدتها وفداحتها مثل الذى بلغه هؤلاء من الفساد والفجور .

ومع ذلك لم يكد المسيح وكثير غيره يأتون الناس فى الاخلاق بدساتير تبين الخير من الشر ، وتوضح للناس ما يفعلون وما لا يفعلون ، بل لم يكادوا يأتون بشىء كبير فى باب العقائد الالهية . أفلا نذكر كيف استأثر رجال الدين بعد السيد المسيح بالأمر ، وكيف اختصوا أنفسهم

بتقرير العقائد وموسوعات الوجدان الانســاني ، وكيف وضعوا (طقوس) العبادات ، وحرموا على الناس حق تفسير كتب العهدين ، كما حرموا عليهم معارضة ما تأمر به الكنيسة ، ولو كان من غير المعقولات ، الى أشباه ذلك مما ضجت الامم النصرانية من هوله ، وثارت للتخلص منه ثوراتها الدموية التاريخية ، سياسية كانت أو دينية .

لم نر فيما سجل لنا تاريخ الأديان السماوية ، دينا تجاوز تلك الحدود التى وصفنا ، فتناول شــيئا من الشرائع المدنية أو علما بالشئون الكونية سوى دين موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، وذلك لم يكن فيما يخيل الينا خروجا عن الحدود العـــــادية للرسالات السماوية ، الا انه لمن تدبره لم ينزل به الروح الامين عبثا ، ولم يرسله الحكيم العليم اعتباطا ولا فضولا ، ولكن كان فيمن بعث اليهم هذان الرسولان الكريمان من الشئون والاطوار ما اقتضى أن يمدا من قبل القوى العزيز بما لابد منه فى مصارعة أفكارهم الضـــالة ، وهداية عقولهم الهائمة ، واصلاح شئونهم التعاملية الفاسدة .

كان بنو اسرائيل بمصر متأثرين بالتقاليد والعقــائد والعلوم والعبادات المصرية ، فكانوا يعبدون الاوثان والصور ويعلمون من العلوم الكونية ما كان معروفا بين الناس فى هذه الديار ، فلما خرجوا الى سيناء ، ولم يكفهم تأديبا ولا عقابا مالاقوه فى التيه من صـــنوف العذاب والشدة ، جاءهم موسى ، بعد مناجاة الطور ، بالالواح يدعوهم فيها الى توحيد الله ، والنهى عن عبادة غيره ، ويحرم عليهم أن يشركوا به شيئا . ولقد كان لابد أن يأتيهم بشىء من العلوم الكونية ، لما كان لهم من الالمام بها والوقوف على

نتف من غثها وسمينها وفاسدها وصحيحها ، فاذا جاءهم بسفر التكوين فانما ذلك لتبديد ما تزاحم فى صدورهم من الضلالات والخرافات المصرية والكريتية التى أبعدتهم عن العلوم بقيوم الارض والسماوات ، وسولت لهم عبادة الصور والاوثان ، وما فى الفضاء من الثوابت والسيارات، واذا جاءهم موسى مع هذا بشىء من الشرائع والاحكام التعاملية ، فانما جاءهم بما كان ضروريا لهم فى تدبير وسياسة أرض كنعان ، التى كتب الله لهم . ولو أن موسى عليه السلام عاش حتى ظهر قومه على الكنعانيين ، واندمج فى نطاق ملكهم ما شمله بعد موته حكم يوشع وداود وسليمان ، لكن فى توراته اليوم من الاحكام التعاملية والتعاليم السياسية الشىء الكثير .

وهل كان فى استطاعة موسى عليه السلام ، لولا ما أمده الله به من ذلك العلم والشرع ، أن يعيد اقوامه الهائمين فى أودية الجهالة الى حظيرة القدس الربانية ، أو يشرق على نفوسهم الضالة بالانوار الالهية ؟ كذلكم جاءت رسالة موسى عليه السلام للبلاد . أما محمد عبد الله ورسوله الى الناس كافة ، فان لرسالته التى دامت عشرين عاما ونيفا ، ولدعوته التى ستبقى ما بقى الانسان فى الارض ، من الشئون والخصائص والمقاصد ما لا يشاكلها فيه دين ولا تشبهها شريعة .

وسيكون بحثنا فى هذا المقام خاصا بموقف القرآن ازاء المسائل الكونية والعلوم العقلية . ولا نعنى بهذا انه جاءنا فى هذه المقاصد بما تجىء به الكتب الفنية ، تبويبا وتفصيلا وتدليلا وتعليلا . فان هذا كما هو معلوم ما كان يوما ما من المقاصد الاولى للكتب الالهية ، ولا من اغراض

الرسالات السماوية ، وانما يعنينا فيما يلى مدى ما بين القرآن الكريم والعلوم الكونية من الصلات ، وهل وقف كتاب الاسلام يوما ما فى سبيل رقى العلم وحرية الفكر ، كما يتشدق الخراصون ! أم انه على العكس من ذلك كان محرر العقول الاسيرة ، ومنير البصائر المظلمة ، ومثبت الافكار القلقة ، ومنعش الهمم الخامدة ، ومحرك الافهام الجامدة ؟! . كذلك يعنينا أن نصف مقامه فى هذه الاغراض ، وأن نأتى على بعض آياته التى لم يفسرها الا الزمان ، ولم يكشف دقائنها سوى ما أحدثته الحركة العقلية الجريئة التى انهزمت أمامها ظلمات التقليد ، وخفى بها على الابصار ما كان يعد لدى القدماء علوما صحيحة ، ونظريات ثابتة ، وما كان أكثرها سوى ظنيات اخترعها الخيال والتخمين ، أو أساطير خرافية توارثها الاخلاف عن آبائهم الأولين .

جاء القرآن بما جاءت به سائر الرسالات السماوية من التعريف بالخالق ، وتقرير العقائد ، وأمهات الشرائع ، واساس الأدب والاخلاق ، جاء بجميع ذلك ، قصدا الى هداية العالم الانسانى ، وارشاده الى ما يضمن له السعادة والنعيم فى حياته . الا أن القرآن حينما جاء كان الناس فى جميع الارض ، كما هو معلوم للمؤرخين ، نهبا مقسما بين رجال الدين وبين المتغلبين المسيطرين .

كذلك كان شأن الناس فى تلك القرون الوسطى يوم هبط وحى الله فى مكة بالقرآن . فاذا جاء القرآن لما سردنا من المقاصد التى نزلت بها الرسالات السماوية الاخرى ، فلقد جاء كذلكم لتحرير العقول البشرية من رق التقليد واخراج الوجدان الانسانى من نطاق الحجر الذى

ضربه من حوله رجال الدين ، جاء لانهاض العقل الآدمى واستحثاثه فى سبيل التفكير والنظر . جاء يخفر النفس البشرية ويسوقها ، لتقرأ صحف الطبيعة ، وتتدبر آيات صنعتها البديعة . بغض القرآن الى الانســان ، كما أسلفنا ، رذيلة التقليد ، ونعى عليه الجمود على ما ورثه آباؤه الاولون ، أو شاءه الاحبار والربانيون ، حتى لقد سمى القرآن هؤلاء أربابا لمقلديهم فى آيــة : « اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » .

ولكم عير القرآن الغافلين من معطلى العيون عن الابصار والآذان عن حسن الاستماع والافئدة عن الفهم والتدبر ، بأنهم كالانعام بل هم أضل .

عهد البحث والنظر

جاء القرآن والناس فى الارض بين أمى لا يعلم الكتاب الا ظنونا وأمانى ، ومقلد ملكت فؤاده تعاليم الاحبــار والرهبانيين وأساطير الآباء الاولين ، وأباحيون حيث لا قيود استرقتهم الشهوات والاهواء ، فهو عدو لكل وازع وخصم لكل مصلح ، ودهرى يقــول : ان هى الا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا الا الدهر . ثم قام بجانب هؤلاء أقوام كانوا يرون الخطر كل الخطر فى أن تستنير البصائر، وتتحرر العقول ، وأن يعرف الناس أن الناس عباد الله كلهم لآدم وآدم من تراب ، وان يعلموا انه لا تغنى نفس عن نفس شيئا وأن الله أقرب الى الانســان من حبل الوريد ، يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون .

جاء القرآن والناس فى كل أرض كما وصفت لكم ، فكان لابد له من الحيلولة بين أغوال المسيطرين المفترسين من أشباه الناس ، وبين فرائسهم المسكينة الصرعى ، تلك التى تزعجهم يقظتهـــا ويهولهم انتعاشها ويهدم صروح مطامعهم فيها بعثها ونشورها .

ولقد كان ما شاء الحكيم الرحيم بعباده المستضعفين فى الارض ، فان البعثة المحمدية لم تختم الا والناس كافة طلقاء عقلا وضميرا ، أحرار قولا وفعلا .

بهذا الجهاد المشكور القرآن ورسول القرآن بدىء عهد البحث والنظـــــر وولت دولة الجمود ، فوطئت بذلك الاكناف للفلسفة الاغريقية وتحصيل علوم الكون العقلية بعد أن ماتت أو كادت . فهى بأهل القرآن عاشت ، وفى أرض القرآن نمت ، وفى ظل القرآن عزت وسادت .

سلوا التاريخ هل لقيت من القرآن وأهل القرآن فلسفة هرقليتوس وديمقـــــريط وانكساجوراس ما لقيته هى نفسها فى بلاد الاغريق التى هى مهد الفلسفة ومنبتها ؟ . . أم هل لقيت منهما فلسفة سقراط وافلاطون وأرسطو وارسترخوس وكليانتوس وبطليموس ما لقيتـــــه من الكنيسة الرومانية فلسفة هؤلاء الاساطين ، ثم فلسفة العرب بعدهم من الاضطهاد والمطاردة ؟ . . وهل اضطهد القرآن وأهل القرآن أمثال برونو وغاليليو ، وامعنوا فيهم تنكيلا وتحريقا لغير علة سوى أنهم ، بعد اذ اعتمدوا على الحس والمعاينة وتسلحوا بالآلات المكبرة والمقربة ، استنكروا عتيق الخرافات وأعلنوا الدعوة الى المشهودات وآذنوا بالحرب والقطيعة أصحاب الظنيات ؟

ظهر القرآن أول ما ظهر فى أمة أمية ، لم تألف المباحث العقلية ، ولم تعرف علوم الكون والمسائل الطبيعية ، فلما جاءهم بما ذكر لهم من اشاراتها أو صريح عباراتها ـ ولم تتسع لها مداركهم بعد ـ ذهبوا فى أمرها مذهب التفويض والتسليم وابوا أن يقفوا ما ليس لهم به علم ، فتقبلوها مؤمنين . وتركوا أمر تأويلها وفهمها الى أهل العلم آخذين بقوله تعالى « ان الظن لا يغنى من الحق شيئا » وقوله « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » وقوله « وفوق كل ذى علم عليم » الى اشباه ذلك من الآيات التى علمهم بها الله أن العقل ليس بعربى ولا عجمى ، وأن العلم ليس بشرقي ولا غربى .

وقف السلف الصالح بتعاليم هذه الآيات القرآنية عند حدود التفويض فيما لم يعلموا ، حتى فتحت أبواب بلاد الروم لعقول المؤمنين ، بعد اذ أعدها الاسلام لاغتنام ثروتها العلمية وذخائرها الفلسفية ، فتفجرت لاهل القرآن عيونها النضاخة وتقدمت الأيديهم قطوفها شهية دانية ، فكان ما شاء الله أن يكون لعباده المؤمنين ، سبق فى كل مضمار ، ونقابة خالصة لهم فى سائر شعب الحياة ، وقيادة عامة فى ميادين الحضارة والسياسة والصناعة والزراعة والأدب وفنون الجمال .

اجل ! ولكن بقايا الصدر الاول ، المسمى بالسلف ، قلقت نفوسهم يوم رأوا الفلسفة الاغريقية تجد سبيلها بين المؤمنين ، حتى رأوا الكثير فيها خطرا على دين الاسلام ، وحربا على تعاليم القرآن ، كما خفت اذ ذاك احلام طارت بها الاهواء والزعازع الفكرية الى مسالك

متشعبة من الشك والابتداع والالحاد، حتى اذا ركدت تلك الاعاصير ، وثابت العقول الى رشدها ، وامتحن الناس موقف القرآن ازاءها ، سكنت النفوس القلقة ، واطمأنت الافئدة المضطربة ، اذ وجدوا فى آياته المحكمة ما كان جنة لهـذا الدين ، ومنـارا للمحصلين ، وحجة قـائمة على الجامدين ، ورجوما لشياطين المرجفين من الجاحدين .

ثم أخذ أمراء المؤمنين وخلفاؤهم ءهم القوامون على دين الاسلام الحامون لحماه ، يهتمون بأمر تلك العلوم ، ويترجمون الى العربية ما كان موضوعا منها باللغـات الاخرى ، كما أخذوا يتدارسونها ، ويقربون من مجالسهم أساتذتها وفطاحلها ، ولو كانوا من غير المؤمنين . ففى ظل القرآن وصادق دعوته الحارة الى الدرس والبحث والتفكير العميق ، تعانق العلم ودين الاسلام عدة قرون، لم تتخللها وحشة ولم يعوزها صفاء ولا سلام . وما زال ذلك الامر قائما فى البلاد الاسلامية حتى فسدت الملكة العربية ، وعجز الناس عن تفهم كتاب الله وادراك تعاليمه ومقاصده بمستقبل مداركهم وحر عقولهم . هناك حيل بين العقول والعلوم ، وبخاصة فى بغداد ، فنصب طائفة من الفقهاء انفسهم للفتيـــا والتفسير ، حاجرين على المدارك ان تتحرك فى ميادين المعقولات ، وعلى الابصار ان تتقلب فى صحائف الارض والســموات . وما زال شيوخ الدين ، باسم الدين هنالك يستأثرون بكل أمر ، والخلفاء والامراء الترك من ورائهم يجنون ثمار الجهالة التى تفشت فى اممهم ، ويستغلون العامة من شعبهم ، استغلال بهم الانعام ، حتى عاد الاسلام غريبا كما بدأ ، وانقلب الناس الى جاهليتهم الاولى . ولقد حذا المسلمون

فى هذه النوبة حذو المسيحيين فى البلاد الغربية ، فأقاموا فى بغداد ما أقامه الأوربيون فى ممالكهم من محاكم التفتيش وأوقدوا نيران العداوة والبغضاء على من خالفوهم فى الرأى والاجتهاد ولو كان مرجعهم فى ذلك كتاب الله وسنة رسوله الكريم . فلقد أوصدوا أبواب الاجتهاد أمام العقول وقطعوا للناس فى العقائد والاحكام بأشياء وضعتها أيديهم ، ثم قالوا هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكذبون .

احتكرت هذه الطائفة ــ ولا سيما فى بغداد ــ علم العقائد والشرائع وتأويل الكتاب والسنة ، كما احتكروا علم السنن الكونية والمباحث الطبيعية ، وتبعوا فى استبدادهم بالعامة بل بكثير من الخاصة سنن رجال الكنيسة ، شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، فحرموا وحللوا وفسقوا وكفروا ، وحذروا الناس عواقب مخالفتهم فيما ينهون ويأمرون ، فأقاموا بذلك لأنفسهم سلطانا على النفوس والسرائر والعقول ، واتخذوا من مقاماتهم الدينية للترك المتغلبين والامراء الجاهلين آلات يبلغونهم بها مآربهم السياسية ومطامعهم المادية . فلأغراض سياسية صبغت بألوان دينية كان أكثر ما شهدته بغداد من المصادمات والاضطهادات الدموية التى قامت باسم الدين ، وما هى من الدين فى شىء ولكنها شهوات المتغلبين ومطامع الجبارين ، قضت بأن يعطل فى بغداد القرآن ، ويطفأ بها نوره الساطع الذى جعلها فى عدة قرون كعبة المحصلين ، ومثابة المستنيرين ، ومهاد توامى العلم والدين .

ولما جاء المغول بغاراتهم الساحقة الماحقة ، كتب الفوز والغلب للجهل وتم النصر للسيف على العقل ، فهام الناس فى أودية الضلال ، ورجعت العقول الى جاهليتها الاولى ، انقطاعا عن التحصيل ، وتقيدا بالتقليد ، وأخذا بالخرافات والاضاليل .

بهذه النظرة العامة التاريخية لموقف القرآن ازاء العلوم العقلية والكونية ، يتبين أن حياة تلك العلوم وذيوعها فى سائر البلاد التى شملها ظل القرآن كانا معقودين بمبلغ وقوف الناس على معانى هذا الكتاب ، ومدى ادراكهم لاسراره وأخذهم بتعاليمه . ولعل القارىء لاحظ كيف ابتدأ تقلص ظلالها عن الربوع الاسلامية ، ومتى انطمست معالمها فى الحواضر التى بها كانت زاهية زاهرة ، تضرب اليها آباط الابل من كل صوب ، ويقصدها طلاب المدنية والعرفان من أطراف الارض .

ولقد يدرك المؤرخ البصير أن أرواح الامم وعقلياتها ، يعدى بعضها بعضا ، ولا سيما ما كان منها خبيثا ، فالشعوب الاسلامية فى الشرق ، عندما غشت أبصارها ظلمات الجهالة فعل فيها رجال الدين ما فعل فى الغرب رجال الكنيسة بالمسيحيين ، وكم من مرة أتحدت أو تقاربت فيها الاوقات التى كانت تقام فيها محاكم التفتيش فى أواسط أوربا ، والاضطهادات المذهبية فى بغداد وما حولها .

ومالى لا أتحدث بما فعل الكاثوليك بأمر شارل التاسع ملك فرنسا عام ١٥٧٢ م بالبروتستانت من المذابح التى أحصيت ضحاياها ، فبلغت سبعين ألفا عدا ، مقارنا ذلك بالجناية الكبرى ، التى جناها السلطان سليم عام ١٥١٣م

فى بلاد العجم ، يوم أحصى الشيعة فى تلك البقاع بطريقة سرية لم يشـعر بها أحد ، حتى اذا عرفت مساكنهم وأشخاصهم ، أمر السلطان فأبيدوا فجأة عن آخرهم ، وكانوا نحو أربعين الفا ، ولم يكن لذلك من سبب ، سوى القصد الى اثارة نفس عميد الشيعة الشاه اسماعيل ملك العجم ، واستفزازه للمحاربة ، طمعا فى ملكه ، وقصدا الى ابادة دولته . فالسبب فى هذا المثل كما ترون سياسى بحت ، ظهر للناس فى شكل دينى . ولهذا المبحث من الاحداث والشواهد ، ما يخرجنا سرده عما قطعناه على انفسنا هنا من الايجاز والاجتزاء بالعجالات والامثال .

كذلك كان شأن القرآن ازاء العلوم ، وقد كان من موسوعاتها العلوم العقلية من الرياضيات والطبيعيات وما وراء الطبيعة ، فهو الذى قام بالدعوة اليها ، والترغيب فى البحث عن دقائقها واسرارها ، وهو الذى ببركته وجد بين المؤمنين آلاف من أمثال : الكندى ، ومحمد بن موسى الخوارزمى ، ويحيى بن أبى منصور ، والعباس بن سعيد الجوهرى ، وأحمد بن كثير الفرغانى ، وجعفر بن محمد البلخى ، ونصير الدين الطوسى ، وثابت بن قرة ، وعمر ابن الخيام ، وابن سينا ، وأبى نصر الفارابى ، وابن رشد ، والحسن بن الهيثم ، وأشباه هؤلاء من فطاحل العلوم الرياضية والطبيعية والأثقال والموسيقى وغيرها .

القرآن والعلوم الحديثة

لم يبق علينا اذن الا البحث فى موقف القرآن الكريم ، ازاء ما يسمى الآن بالعلوم « Sciences » وهل فى طبيعة

دراستها بالاساليب الحديثة ، ما يجعل بينها وبين القرآن وتعاليمه سدا لا يتعانقان معه ، وقتالا لا يرجوان سلاما بعده ؟ أجل ! بيد أنه لابد لنا قبل الدخول فى تفاصيل ذلك البحث أن نعرف لكم معنى كلمة (العلم) المألوف للعرف الحاضر فى الغرب وكذا فى الشرق الذى يسير على أثر الغرب فى كل شيء ، فان لكل زمان اصطلاحه وعرفه، ولكل عرف حدوده وحكمه . ولنعتمد فيما نقدم لكم من أهل أوربا ، فانهم محدثو هــذه الفلســفة ، ومبتــدعو اصطلاحاتها ، وواضعو تعاريفها ، فنقول :

١ ـ يقول هكسلى : « العلم » فيما اعتقد ، ليس سوى الذوق الانسانى بعد تربيته وتنظيمه ، ويطلب هذا العلم حقائق الكائنات الطبيعية بواسطة الحواس ، مع الاستعانة بجميع ما عرف لهذا العهد من أنواع الآلات العجيبة المدهشة ، مثل المناظير المكبرة Microscope والمناظير المقربة Telescope ، وهل أقيمت اكتشافات كبلر ونيوتون الا على تلك القواعد الثابتة ، قواعد الشهود بهذه المناظير ؟ » .

٢ ـ ويقول الاستاذ بلفور فى خطبة له :

ـ يتوقف « العلم » فى تحصيله والتثبت منه على المقاييس فكل ما لا يقبل القياس من الاشياء ، فهو خارج او يكاد يكون خارجا عن حدوده الطبيعية ، ومعلوم أن الحياة والجمال والسرور ليست مما يقاس ، فهى اذن لا تكون من موضوعات « العلم » .

٣ ـ ويقول الاستاذ وندل : « العلم ـ ســواء استعان بالآلات أم لم يستعن ـ عماده ما يلاحظه الانسان ويحسه

من الكائنات ، وما تهديه اليه فى المعامل الكيميائية والمعامل الطبيعية التجـــاريب والآلات ، التى تمكنه من انتزاع غوامض أسرار الطبيعة من مكامنها العميقة ، مع بلوغهـا من الدقة والضآلة ، ما يكاد يحجبها عن ابصار الرائين .

واذا أردنا أن نبحث فى باطن النظام الآلى للطبيعة أو فى خارجه ، أو قصدنا معرفة ما انبعث عنه هذا النظام ، وكيف كان وما مصيره ، أو حاولنا أن ندرك كنه هــذا الكون ، ومبلغ شعورنا به ، ولم وجد ولم خلقنا نحن هنا ؟ اذا أردنا ذلك ، فان العلم الحديث ليس لديه جواب عن شىء منه ، اذ لا دخل لشىء من ذلك فى الحــدود المصطلح عليها للعلم ، واذا كان لا علاقة للعلم الحديث بشىء من تلك المباحث ، ولا جواب لديه من امثال ما قدمنا من الامثلة ، فليس بالطبع لأحد ممن يتكلمون باسم العلم أن يدعى أن « العلم » أقام البرهان على عدم وجود الله ، أو أنه ليس هناك أرواح ، او ان هنالك او ليس هنالك بعد هذه الحياة الدنيا بعث ولا نشور ، ولا جنة ولا نار الخ ... » .

مما أقتبسناه هنا من أقوال أساطين التجديد الغربيين فى تعريف كلمة « العلم » وتحديد مداها وموضـــوعاتها يتبين أن من الجهل الفاضح واللغط الطائش أن يتعرض باسم هذه الكلمة ــ ورقعتها من الضيق على ما رأيتم ــ الى المباحث العقلية البحتة ، وبخاصة ما وراء الطبيعة منها ، فان « العلم » بالمعنى الذى وصفه وعرفه واضعوه كما أسلفنا لا يعرض لشىء من هذه المباحث بنفى أو اثبات ولا يتناولها بامتحان ولا مناقشة ، وكيف وهو لا يصل

المحسوسات ولا يعرف موضوعا غير الماديات ، ولا منطقا سوى المعامل والآلات .

***

ولقد وقفت الكنيسة فى بدء بناء « العلم » على تلك القواعد الجديدة وقفة المحارب العنيد أيام حكمت بالكفر شعبة الالهيات فى جامعة توبنجن بألمانيا على الفيلسوف كبلر سنة ١٥٩٦ ، وأصدرت محكمة التفتيش قرارها المشهور الذى خلاصته :

١ ــ ان النظرية القائلة بأن الشمس مركز الدنيا وانها لا تتحرك من مكانها هذيان . وأنها كذلك هرطقة لأنها بلا ريب مناقضة للكتاب المقدس .

٢ ــ أن النظرية القائلة بأن الاوض ليست مركز الدنيا، وانها غير قارة ، ولكنها متحركة ومتنقلة ، هذه النظرية مساوية فلسفيا لسابقتها فى هذيانهـا وخطئهـا ، ومن الوجهة الدينية تعتبر على أقل فرض عقيدة خاطئة .

ولم تهبط ثورة الحركة العدائية للعلم وأبحاثه الجديدة الا فى نحو الثلث الاول من القرن السابع عشر بعد اذ أخذ رجال الدين يتبينون خطأهم فى فهم عبـــارة « العلم » ويفقهون الا علاقة لها بغير الماديات والآليات من الكائنات أصلا ، فهنـــا نرى القسيسين الكاثوليكيين : بليالدو وغسيندى ، يتوليان علنا فى الاعوام (١٦٣٩ ــ ١٦٤٥) الدفاع عن نظرية كوبرنيك ، فلا يصابان بأذى ، ولايتهمان بهرطقة .

بعد الذى قدمنا فى هذا المقام من البيان ، نود أن نقرر بكل توكيد ان موقف القرآن الكريم تجاه « العلم » فى

العصر الحديث ، هو عين موقفه أزاء « العلم » فى القرون الوسطى الى عهد التجديد الغربى ، فهو كما كان قبلا لا يفتأ يدعو العقل الى التفكير ، والأبصار الى الاعتبار ، والآذان الى الاستماع ، ثم هو مع ذلك لا ينفك يستدرج الناس الى التحسس من أسرار الكائنات ، ويحفزهم الى الكشف عن غوامضها ، والتنقيب عن دقائقها ، فهم بحكم تعاليمه الخالدة يفقهون انهم لم يؤتوا من العلم الا قليلا ، وان الله يخلق ما لا يعلمون ، وأن الكائنات خلقت مما يعلمون ومما لا يعلمون ، وأنه ليس للعلم صورة خاصة ولا حدود حاصرة . كذلكم يجد المؤمنون أنفسهم بحكم آياته الحكيمة منهيين عن التقليد فى عقائدهم ، واتباع الظن فى أحكامهم ، والميل مع الاهواء فى تصرفاتهم .

على أنهم مع هذا كله يجدون فى كثير من آى القرآن ما يرشدهم الى مواطن التفكير والبحث ، ويعرفهم ما يتطلبون الوصول اليه من أسرار العالم ودقائق حقائقه . واذن كان استقصاء ما جاء من ناحية النظريات الحديثة فى القرآن الكريم ، وبيان القول فيه كما ينبغى مما لا يتسع له هذا المقام ، فاننا نكتفى هنا بالاتيان على طوائف منها اجمالا لا تفصيل له ، وايجازا نجتزىء بالاشارة فيه . ففى هذه الحدود التى رسمنا لأنفسنا نقتبس من الآيات الكريمة ما له علاقة وتناسب بأمهات تلك النظريات الفلسفية . وقبل انجاز ما وعدناكم هنا نرى أن نجمل لكم ما سبق تفصيله فنقول :

١ ــ ليست مهمة القرآن كسائر الكتب السماوية البحث فى الشئون الكونية والمسائل العلمية والفنية على النحو المألوف فى الكتب الخاصة الموضوعة فيها

٢ ـ لما جاء القرآن الكريم كان فى جزيرة العرب من العقائد الفاسدة والعلم الخاطىء بالكونيات أضعاف أضعاف ما كان منها لدى بنى اسرائيل عندما أخرجهم موسى عليه السلام من مصر ، فكان من الحكمة الالهية أن يتنزل على محمد فى سبيل تصحيح تلك العقائد والمعلومات أضعاف ما تنزل على موسى فى سفر التكوين . والحكمة البالغة فى ذلك أن الدعوة الى توحيد الخالق ، وتقرير الحق من العقائد ، وقبول ما يلى ذلك من الشرائع والاخلاق ما كانت لتجد سبيلها الى قلوب عرفت للاجرام العلوية وأصلها والوهيتها وتزاوجها وما كان من انسالها فى تكوين هذه الكائنات ونظامها ما قررته العقلية القديمة فى بلاد مصر والاغريق وما بثته فى جزيرة العرب وما حولها من أساطير الاشوريين البابليين والكلدانيين . اذن كان لزاما أن يسترعى القرآن الناس الى وجه الخطأ فى عقدئدهم ، وأن يشككهم فى الباطل الذى اتبعوه ، لانهم وجدوا عليه آباءهم ، وان يطلقهم بذلك من الحجر الذى أشقاهم وألحقهم بالانعام من الحيوان .

٣ ـ كانت اذن مهمة القرآن الحكيم ، التى أرادها لتمهيد السبيل الى التعريف بالخالق جل شأنه ، أن يبين للعقول بضرب الامثال لم تفكر وفيم تفكر وكيف تفكر ؟ فهو فى جهاده هذا كأنه يخطط أرض العلم لتقيم العقول البشرية عليها صروحه الشامخة المتينة ، ويرسم الخطوط الاساسية للصور كى يملأها الرسام بما يلزم لها من الالوان والظلال ومعالم الجمال .

٤ ـ لم يقف القرآن الكريم عند هذا الحد فيما ضرب لنا من الامثال فى بيان بعض غوامض الحقائق الكونية ،

بل جاء فى ذلك بحقائق أمر الاميين وغير المحصلين بالتسليم بها والتفويض فيها ، كما أمر العقول الناضجة المقتدرة بطلابها والوقوف على دقائقها والعلم بوجوب الصواب فيها . ثم نصح للفريقين أن يعترفا بعجز عقولهما ، وألا يقطعا فى شىء فيما لا تبلغه أبحاثهم وسعيهم ، بل يتهمون أنفسهم بالعجز والقصور ، ويسألون اهل الذكر فيما لا يعلمون أو يكلون امر ما لا يدركون الى من يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

٥ ـ ان المسيحيين حينما ثاروا فى وجه العلم ونظام الحكم ثورتهم التجديدية في أوربا لم يكونوا ليشبهوا فى شىء من مواقفهم تلك أحدا من الشعوب الاسلامية ، فانما كان مبعث حركتهم العنيفة ومصدر ثورتهم الدموية ، ان رجال الكنيسة باسم الدين حجروا على العقول والوجدان، وقرروا للكنيسة فلسفة حرموا على الناس حتى استيضاح ما غمض عليهم منها ، ثم قرروا تكفير من يقول بغيرها ، ولو اعتمد فى رايه على الحس والمعاينة . حتى لقد كان منهم ميلانشتون وكيرمونينى اللذان رفضا أن ينظرا الى السماء بتلسكوب (الآلة المقربة) .

وقد روى عن غاليليو أن من تلاميذ المذهب الأرسطى من كانوا ينكرون وجود أجسام علوية مرئية بالفعل ، وانهم كانوا يعتبرون فلسفة أرسطو كتلة واحدة لا تقبل التفكيك ، اذا نفض منها حجر انهار سائر بنيانها على أثره ، فكان ذلك سبب مغالاتهم في التمسك بها والحرص عليها مجتمعة .

والآن ، وقد فرغنا من هذه المقدمات التمهيدية ، ننجز ما سبق لنا الوعد به ، فنقول :

(أ) تكون جميع أصول الكائنات من زوجين اثنين وبلسان العلم الحديث من : الكترون ، وبروتون .

وفى القرآن : « ومن كل شىء خلقنا زوجين اثنين » فما من شىء فى الوجود الا منه الذكر والأنثى سواء فى ذلك النبات والحيوان والجماد وغيرها مما لانعلم .

وجاء فى بيان اجمال ذلك قوله تعالى : « سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » وفى عبارة « ومما لا يعلمون » من المعانى ما يسكن اليه عقل الانسان فى كل زمان ، وتطابقه كما رأينا أحدث نظرية فى أصول الاكوان .

(ب) تتولد الحياة من الماء .

وفى القرآن : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » فهذه الآية تطابق العلم الحديث فى هذا الموضوع . ولقد وقفت عقول قدماء المفسرين ازاء هذه الآية حائرة قلقة ، فلم تدرك منها ذلك المعنى على ظهوره ووضوحه . ولذلك وقع لهم فى تأويلها خلط كثير نضرب عنه صفحا هنا .

(جـ) تعدد الارضين .

لم يذكر القدماء شيئا فى أمر تعدد الارضين سوى ما نقله ابن سينا عن قدماء حكماء الفرس من أن هنالك اراضى كثيرة غير أرضنا ، وما زال الرأى السائد بين سائر الحكماء والفلاسفة يقول بعدم تعددها ، حتى جاء غاليليو المتوفى سنة ١٦٤٢ بمناظيره المكبرة والمقربة ، وكذلك من جاءوا بعده فأثبتوا بمشاهدتهم العينية الصادقة أن السيارات جميعها أراض كأرضنا ، وقد يكون بها ما بأرضنا من الجبال والوهاد والماء والهواء

والخلائق والعمران . ولم يعتمدوا فى هذا التجويز الا على الحدس والظن ، فان مناظيرهم لم تثبت لهم ذلك بعد .

أما القرآن فقد صرح بتعدد الارضين فى آية « الله الذى خلق سبع سـماوات ومن الارض مثلهن » ففى تفسير أبى السعود (من مفسرى القرن التاسع للهجرة) أن الجمهور على أنها سبع أرضين بعضـها فوق بعض . وفى تفسير النيسابورى أنهـا سبع أرضين ما بين كل واحدة منها الى الاخرى مسيرة خمسمائة عام (١) وفى كل ارض منها خلق .. الى ان قال : وهم يشاهدون السماء من جانب ارضهم ويشهدون الضياء منها ، الخ . ومن أصرح الآيات فى أن السـيارات اراض مأهولة آية الشورى : « ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة » اذ المراد بالسموات هنا السيارات على ما يأتى لنا من التأويل . ومن الآيات البينة فى هـذا الموضوع قوله تعالى : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض وما فيهن ، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » .

ومن قصرت عقولهم من القدماء استبعـدوا وجـود الحيوان فى الاجرام السماوية ، ولكن نفى الزمخشرى والبيضاوى وغيرهما استبعاد أن يخلق الله فيها صنوفا

---

(١) مسألة تقدير المسافات التى بين السيارات مثلا بمسير خمسمائة عام يفسرها الشهرستانى بالدابة تسير فرسخا اسلاميا فى كل ساعة على ماهو معروف ومصطلح عليه فى سائر الكتب الاسلامية مما يبلغ مجموعه نحو ١٦ مليون ميل تقريبا وهو قريب جدا من تقديرات المتاخرين للمسافات الفاصلة بين السيارات كما يقول ذلك الاستاذ فى كتابه المسمى (الهيئة والاسلام) صفحة ٩٠ جزء أول .

من الحيوان يمشـــون فيها مشى الانســـان على الأرض ، فالله خلق كما قالوا ما نعلم وما لا نعلم .

(د) السيارات هى التى تدور فى مدارات وهمية ، وليست كما يقول قدماء الفلاسفة ثابتة فى أفلاك دائرة بها ، وهذه الافلاك لا تقبل الخرق والالتئام ، الى آخر ما جاء للقدماء فى وصفها والتعريف بها : أما القرآن الكريم فيطابق الفلسفة الجديدة فى آية « كل فى فلك يسبحون » وآية « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق » .

(هـ) الشمس جسم مشتعل تبث النور والنـار من ذاتها وترسلهما الى سياراتها المرتبطة بها وان اقتضى ذلك اضاعة أضعاف أضعاف ما يحتاجه كل سيار من أشعتها . والأجرام الكونية جميعها حادثة بالذات والزمان، وقابلة للفساد والفنـــاء . ومن الثابت بالحساب أن الشمس تفقد من مادتها فى الثانية على أقل تقدير أربعة ملايين طن . ولا ينبغى أن يزعج هذا عشاق الحيـــاة الدنيا ، فان الشمس على هذا الحساب تحتاج فى فقدها جزءاً من مائة جزء من حجمهـــا الى مائة مليون سنة وخمسين ألف سنة . على أنها بعد أن تصل الى هـــذه الحالة نجدها لا تزال ترسل من نورها وحرارتها ما يجعل الحياة فى أكثر أجزاء هذه الارض صالحة طيبة .

وفى القرآن ما معناه فى ذلك : « **وجعل الشمس سراجا** » « وجعلنا سراجا وهاجا » قال مقاتل فى تفسير الوهج : مجمع النور والحر ، وفى القـاموس : وهجت النار اتقدت .

ومن الآيات « اذا الشمس كورت » أى ذهب حرها ونورها ، وآية « اذا السماء انفطرت . واذا الكواكب

انتثرت » « فاذا النجوم طمست . واذا السماء فرجت . واذا الجبال نسفت » الى أمثال هذه من آيات القرآن الكريم . وهنا يجمل ان اذكر بالخير أحد مجتهـــدى الشيعة هبة الله المشهور بالشهرستاني ، وهو من علماء عصرنا فقد وضع كتابا فيما بين الهيئة الحديثة والاسلام من الاتصال ، فأتى على بعض مباحث قيمة مفيدة يحسن ان اقتبس منها ما جاء له في بيان معنى السماء في القرآن اذ يقول : ـ

١ ـ اذا وردت السماء والارض معـا ومفردتين فى آية ، كان الظاهر من الارض أرضنا ومن السماء ما علاها من الهواء والأجرام .

٢ ـ واذا ورد لفظ الارض مفردا ومعه الســـماء مجموعة ، كان الظاهر من الارض ارضنا ومن السموات الكرات والاجرام مطلقا .

٣ ـ واذا ورد لفظ الارضين مع السماوات مجموعتين ، كان الظاهر من الاراضى السماوات والكرات البخـارية المحيطة بها .

***

هذا وتطلق اللغة كلمة السماء على كل ما يعلو الارض . قال القزوينى : كل ما فوق الارض فهو سماء ، وقال الطبرسى فى مجمع البيان ، كل ما علاك واظلك فهو سماء وجملة القول فيما قصده القرآن من كلمـة السماء ان السماء :

١ ـ نفس الجو كآية « وجعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا » .

٢ ــ الاجرام السماوية والسيارات كما في حديث « ان في السماء آدم كآدمكم ونوحا كنوحكم » وكما في آية « ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة » .

٣ ــ جسم عظيم مكور محيط بالارض ، ولكن اختلف الناس في فهم كنهه والمفهوم من بعض الاحاديث أنها كرة بخارية غازية ، وهذه مع كرة الهواء التي في جوفها تتحركان مصاحبتين للأرض بجميع حركاتها ، وفيها يقول الاستاذ فاندايك (جزء ثالث ــ النقش في الحجر) :

« انا عائشون في قعر اقيانوس سيال معدل عمقه على الاقل مائة مثل لعمق أوقيانوس الماء الغامر للكرة الارضية» وفي هذا المعنى جاءت آية « ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » ففي مروج الذهب وابن ميثم في شرحه على نهج البلاغة أن المفسرين اتفقوا على أن الدخان الذي تكونت منه السماء كان عن تنفس الماء وتبخره ، وفي كليات أبي البقاء : كل دخان يسطع من ماء حار فهو بخار وكذلك الندى . وبهذا المعنى أتت الآيات الكريمة : (١) « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر»(٢) « يوم تشقق السماء بالغمام» و (٣) « وانزلنا من السماء ماء » (٤) « أو لم يرو أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي » (وذلك في رأى بعض المفسرين) وكذلك جاء قول الشاعر :

اذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وان كانوا غضابا

ولقد رويت بهذا المعنى أحاديث كثيرة تختلف درجات صحتها ، وفيها تسمى تلك الطبقة البخارية بالبحر

المـكفوف ، اى الذى لا يهبط ولا يسقط لانه فى حالة بخارية .

***

فائدة الجبال فى الارض وحكمتها انها مقام الانسان وغيره من الكائنات الحية أو شرط بقائها وحياتها ، اذ هى الجزء الجـــامد المرتفع الراسى الثابت المتماسك الاجزاء والعناصر الصلبة . ولولا هذهالخصائصوالصفات لمادت الارض ببحارها ولاضطربت بأمواجها كما يشـــاهد فى القسم المائى منها وهنالك لا يكون للانسان بها مستقر ولا للعمران فيها سبب ولا مكان .

ومن الآيات الواردة فى ذلك المعنى : (١) « وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بكم » و (٢) « وجعلنا الجبال أوتادا » و (٣) « والقى فى الارض رواسى أن تميـد بكم » .

وذلك أن الجبال لصلابتها وتماسك عناصرها وارتفاعها عن سطح البحار تكون للانسان مقاما حصينا لا يهدده طغيان البحار ولا يجترفه مضـــطرب الامواج . ثم انهـا لشهوقها ومختلف درجات ارتفاعها لها من الفوائد العظمى والشرائط الجوهرية الضرورية للحياةوالعمرانوالحضارة ما لا يخفى على المصلحين . ومن الخطأ أن تتخيل الجبـال كالاوتاد تغرز فى الارض أو الحـــائط لتربط بها الدواب خشية فرارها أو الخيمة لبنائها واقامتها على أعوادها فان هذا المعنى ليس مما يخطر للعقل السليم . وما لنا نأخذ بهذا التأويل السقيم ، ولنا فى معانى الوتد لغة مالا يلجئنا اليه ؟

لقد سمى العرب الهنية الناشزة فى مقدم الاذن وتدا،

فيقال « ما أملح وتدى أذنه » كما استعملوا أوتاد البلاد لرؤسائها الظاهرين فيها وأوتاد الفم لأسنانه المثبتة فى فكيه . اذن لماذا يقذف بنا الشطط فى التأويل حتى نحمل كتاب الله العربى من المعاني ما هو بعيد عن نظمه البديع ومراميه الطبيعية ؟ أفلا يعلم أولئك أن الجبال هى المثبتة فى الارض كما يثبت وتد الدابة أو الخيمة فى الارض والحائط ، وأن الامر بهذا ينعكس عليهم اذ تكون الارض هى الوتد الذى تثبت به الجبال لا العكس .

ثم ما عسى أن يكون مبلغ تأثير الجبال فى الارض من ناحية حفظ توازنها ووقايتها ما يحل بها من الميدان والاضطراب كما يقول أولئك الواهمون . اننا نعلم أن الله سبحانه وتعالى رفع السماوات والارض بما قدر لها من القوانين الكونية وما أقام بينها من التجاذب ، فهو الرافع لها ، كما فى القرآن ، بغير عمد مرئية للأبصار ، ولكن جعلها سابحة فى الفضاء محفوظة من السقوط والاضطراب والميدان ، فهى تسبح بقدر فى مدارها سبحا لا يعتريه نشوز ولا نكوب ما دامت تلك النواميس قائمة معقودة بمشيئة مبدع الكائنات وفاطر الارض والسموات « ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ، ولئن زالتا ان امسكهما من أحد من بعده » .

على أن نظرة واحدة الى نسبة ارتفاع أعظم الجبال الى قطر الارض تدلك على أن الجبال فى الارض ما هى الا كالهانات الناشزة فى سطح جسم الانسان لا تقيم بضآلتها وزنا لاعتداله ولا توازنه ، فان رفعة تلك الجبال الشاهقة فى كرة الارض على قلة عددها تتراوح بين

خمسة آلاف من الامتار وتسعة آلاف متر تقريبا وبعبارة اخرى تتراوح بين جزء واحد وبين جزء ونصف جزء من ثلاثة آلاف جزء متساوية يقسم اليها قطر الارض تقريبا (١) .

ومن هنا يتجلى مبلغ ضآلة تلك الجبال فى الارض . اما الحكمة فى وجودها فقد سبق الكلام فيها ، واجماله أن الفرض هو اعدادها لعالم الحياة والعمران فى كرة الارض واستخدامها لتخفيف البلاء والجهد عن سكانها من الأحياء واقامة معالم الزينة والجمال فى اقطارها وربوعها .

يشير الى ذلك قوله تعالى : « والارض مددناها والقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج » ».

***

وبعد ..

فقد آن لنا أن نكتفى بما قدمنا لكم من العجالات والامثال فان فى استقصاء هذه المباحث ما يحتاج الى ضخام المطولات . فحسبنا هنا ما تيسر لنا منها والله المسئول أن يوفقنا الى اكمال هذه الموضوعات وايفائها حقها من الشرح والبيان خدمة للدين وهداية للمستهدين من المؤمنين .

الآيات الواردة حول الموضوعات السابقة

١ ــ « أمن خلق السموات والارض وانزل من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أاله مع الله بل هم قوم يعدلون . امن جعل

---

(١) قطر الارض يساوى ٣٠٠٠ فرسخ .

الارض قرارا وجعل خلالها انهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أاله مع الله بل اكثرهم لا يعلمون ».

٢ ـ « قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقـــوا من الارض ، أم لهم شرك فى السماوات ، أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ، بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا » .

٣ ـ « أاله مع الله قـــل هاتوا برهانـــكم ان كنتم صادقين » .

٤ ـ « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » .

٥ ـ « انها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

٦ ـ « ان شر الدواب عنـــد الله الصم البكم الذين لا يعقلون » .

٧ ـ ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تســـمع الصـــم ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » .

٨ ـ وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ان فى ذلك لآيات لقـــوم يتفـــكرون ، وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

٩ ـ « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا

قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة » .

١٠ ـ « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء اتقولون على الله ما لا تعلمون » .

١١ ـ « لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

١٢ ـ « أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين • أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » .

١٣ ـ « ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب الا اماني وان هم الا يظنون ، فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا » .

١٤ ـ « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير » .

١٥ ـ ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » .

١٦ ـ « قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء » .

١٧ ـ « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر اولو الالباب » .

١٨ ـ « هل يستوى الاعمى والبصير ، أم هل يستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ » .

١٩ ـ « قال الذين أوتوا العلم ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين » .

٢٠ ـ « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » .

٢١ ـ « ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

٢٢ ـ « يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا » .

٢٣ ـ « وقل رب زدنى علما » .

٢٤ ـ « سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » .

٢٥ ـ وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » .

٢٦ ـ « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » .

٢٧ ـ « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » .

٢٨ ـ « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » .

٢٩ ـ « تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم » .

٣٠ ـ « وقالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » .

٣١ ـ « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » .

٣٢ ـ « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » .

٣٣ ـ « وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون » .
٣٤ ـ « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم » .
٣٥ ـ « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد » .
٣٦ ـ « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم » .
٣٧ ـ « فذكر انما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » .
٣٨ ـ « فانما على رسولنا البلاغ المبين » .
٣٩ ـ « افنجعل المسلمين كالمجرمين ، ما لكم كيف تحكمون ؟ » .

وهنالك كثير من آيات القرآن الكريم مختومة بمثل العبارات الآتية « قليلا ما تذكرون » ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ، « ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم ان كنتم صادقين » ، « ان فى ذلك لآيات للعالمين » ، « ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » الى أشباه ذلك مما تجدونه فى ثنايا الكتاب العزيز .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على رسوله المبعوث بالآيات المنجيات .

رقم الايداع فى دار الكتب ٣٢٦٧ ـ ١٩٨٣
الترقيم الدولى ٩ ـ ٠٣٣ ـ ٣١٨ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص٠ ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : R. Miguel Maceul Cury. B, 25 de Marco. 1010
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

أسعار البيع فى الخارج للعدد الممتاز فئة ٣٥٠ مليم :

سوريا ٧٠٠ ق٠س ـ اديس ابابا ٥٠٠ سنت ـ لبنان ٧٠٠ ق٠ل ـ باريس ٨ فرنكات ـ الاردن ٦٠٠ فلس ـ لندن ٨٠ بنس ـ الكويت ٩٠٠ فلس ـ ايطاليا ١٢٠٠ ليرة ـ العراق ١٠٠٠ فلس ـ سويسرا ٣ر٥ فرنكات ـ السعودية ٧ ريال ـ اثينا ٨٠ دراخمة ـ السودان ٦٠٠ مليما ـ فيينا ٣٥ شلن ـ تونس ١٠٠٠ مليم ـ فرانكفورت ٣ر٥ مارك ـ المغرب ١٠٠٠ فرنك ـ كوبنهاجن ١٠ كرونات ـ الجزائر ١٠٠٠ سنتيم ـ استوكهولم ١٤ كرونة ـ الخليج ٤٥٠ فلس ـ كندا ٢٥٠ سنت ـ غزة ٨٠ لبرة ـ البرازيل ٣٥٠ كروزيرو ـ داكار ٤٠٠ فرنك ـ لوس انجلوس ٣٠٠ سنت ـ لاجوس ٦٠ بنى ـ استراليا ٣٠٠ سنت ـ اسمرة ٥٠٠ سنتا ـ هولندا ٤ فلورين ـ اليمن الشمالية ٥٠ بنى ـ نيويورك ٢٥٠ سنت ـ الصومال ٥٠ بنس ٠



هـذا الكتاب

يعد هذا الكتاب « الاسلام بين الفطرة والحرية » اثرا نفيسا من اثار العالم الجليل والزعيم الوطني النابغة المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش . فقد طوى حياته في الجهاد الوطني، لتحرير مصر من ربقة الاستعمار ، والسعي لحريتها وكرامتها واستقلالها التام ، واحتمل الم التضحيات . ولكنه الي جانب جهاده الوطني لم ينس واجبه العلمي والديني ، فكتب وحاضر كثيرا ... وكان من ذلك تاليفه لهذا الكتاب ، الذى نقدمه اليوم لقراء هذه السلسلة ، وهو يتناول عدة موضوعات هامة عن الاسلام والقرآن ، كالفطرة والتوحيد ، والنبوة والغرض الفطرى منها ، واثر القرآن في تحرير الفكر البشرى وموقف القرآن من العلوم الكونية .

وقد كتبه المؤلف باسلوب عصرى ناضج ، وبعبارة سلسة فصيحة ـ فقد كان رحمه الله من كبار الكتاب وقادة الفكر وعالما ممتازا من اعلام الوطنية والوطن ـ ويسرنا ان نقدمه لقراء العربية وهو وان كان يهم المسلمين خاصة ، فان فيه لغير المسلمين مجالا للثقافة النافعة وميدانا للرياضة الفكرية والوقوف على ما في اصول الاسلام من مثل عليا ومعان انسانية رفيعة .

٣٥ قرشا

